

٤٢

فكر وفن

عبدالمجيد





الافتتاحية

في هذا العدد (٤٢) اهتمنا بثلاثة محاور : - (١) التنوير - (٢) الف ليلة وليلة - (٣) هاينريش بل : كاتباً وإنساناً . وقبل أن نفسر اختيارنا لموضوع التنوير ، نحاول أن نجيب باختصار شديد على السؤال التالي : ما هو التنوير ؟ إن جلّ القواميس الفلسفية تجمع على أنه الاسم الذي يطلق على تيار فلسفي ظهر خلال القرن الثامن عشر . وأنصار هذا التيار وأعداؤه يتفقون جلياً في تحديد مفهومه ، فالكاهن ميسلي يقول في « الوصية » (١٧٢٥) : « أن نور العقل الطبيعي هو وحده الكفيل بأن يقود الناس إلى الحكمة والحال العقلي . » . وفي جوابه عن سؤال : ما هو التنوير يقول كانط : « لنتمكن لذلك الشجاعة لاستخدام عقلك : ذلك هو شعار التنوير » . أما هيغل فإنه يؤكد في « فينومنولوجيا الروح » أن التنوير هو إثبات العقل . وتعكس فلسفة التنوير ، التحولات الاقتصادية والسياسية والثقافية التي شهدتها أوروبا ما بين القرن السابع والثامن عشر ، وخاصة صعود البورجوازية وتوسعها على حساب الانقطاع . أما جوهرها فهو الدعوة إلى استخدام العقل بهدف تحقيق السعادة فوق الأرض . وإلى حد النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ظل « التنوير » الشعار الذي ترفعه أوروبا بأسرها من أجل التقدم والتطور الصناعي والتكنولوجي . ثم رفع نيتشه صوته محتجاً على هذه « العقلانية الباردة » ومجدداً الجنون . أما « رامبو » فصرخ قبل أن يتيه في حار بحثاً عن الثروة : « العلم ! النبالة الجديدة ! العالم يسير إلى الأمام ! لكن لماذا لا يلوي رأسه للوراء ! » . وقد ازداد نقد « التنوير » و« العقلانية » حدة مع السرياليين ومع الوجوديين (كالي خاصة) . والآن أصبح من الموضوعات الساخنة التي تشغل المفكرين والكتاب والفنانين وحتى الحركات الصغيرة المدافعة عن الطبيعة وعن حماية البيئة . وهو ما دفع بناقد مثل « فريترز رادتس » لكي يقول في إحدى مقالاته : « أن التنوير يأكل أبناءه » ! إن جللاً مثل : « أن هروبي - إذا ما كان هناك هروب - سيكون باتجاه السر » (بيتر هاندكه) أو : « الحياة تبدو وكأنها دوران في نفس المكان » (توماس براس) أو : « كان من الأحسن لو بقينا حيوانات برمائية » (غونتر كونرارت) أو : « لم يعد يوجد لا تقدم ولا هدف . ليس هناك غير دائرة » ! (رودولف هوخهوت) تعكس إلى حد كبير انخراط التيار «التنويري» بل وتبرز أن جملة ديكرات الشهيرة : «أنا أفكر . إذن أنا موجود !» فقدت سحرها في عصرنا الراهن وأن «التنوير دمر العالم ولم يغير وضع الإنسان نحو الأفضل ، وإن كل الثورات التي اشتعلت بهدي منه تحولت بعد ذلك إلى آلات للموت !» . وفي إطار هذا المحور اخترنا في البداية نصاً لادجار موران ، يحاول فيه إبراز النقاط الأساسية في الجدل القائم الآن حول «التنوير» ثم نصاً لكرتوف يفسر فيه معاني نص كانط الشهير : «ما هو التنوير ؟» وبعد ذلك اخترنا نصاً حول الفيلسوف الألماني الكبير جيورج هابرماس يوضح معنى «العقل المنفتح» وآخر حول العلاقة بين الأدب والعقل ، ثم نصاً حول المفكرين لوكاتش وإرنست بلوخ كمناضلين كبيرين من أجل العقل . وأخيراً اخترنا نصاً حول فكرة الرؤيا التي بدأت تبرز من جديد ضمن الأعمال الفنية والفلسفية والروائية . وفي الجزء الثاني من المحور نفسه ، اخترنا نصين : الأول للكاتب المصري سلامة موسى ، والثاني للمفكر التونسي هشام جعيط . وهما ينتسبان إلى جيلين مختلفين . فسلامة موسى من «الجيل الكبير» الذي تأثر بالعقلانية الأوروبية وتحمس تحمساً شديداً للتنوير وأسس الحداثة العربية في مجال الإبداع والكتابة والتفكير . أما هشام جعيط فهو من جيل مرحلة ما بعد نسكة حزيران ١٩٦٧ ، الذي يسمى الآن لفهم فشل «النهضة العربية» وتفسير أسباب الانكسارات التي يواجهها إلى حد هذا الوقت .

في المحور الثاني الخاص بالف ليلة وليلة ، حاولنا من خلال دراسة حول تأثيرات هذا الكتاب الرائع على الحركة الرومانسية الأوروبية عامة والألمانية خاصة ، ومن خلال نص لهوفغنزتال - وهو أحد المتأثرين الكبار بالف ليلة وليلة ، أن نبرز قيمة هذا الأثر الخيالي العظيم وأن نوضح كيف أن الأوروبيين استفادوا منه أكثر مما استفاد منه أصحابه - أي العرب - .

أما المحور الثالث فقد خصصناه للكتاب الكبير هاينريش بل الذي توفي في ١٥/نوفمبر/يوليو من هذا العام عقب حياة مليئة بالإبداع وبالضلال من أجل السلام والكرامة الإنسانية . وقد كان بل واحداً من أهم الذين جسدوا في أعمالهم مأساة ألمانيا خلال الحرب ، ثم أوضاعها في ما بعد . وفي ركننا الخاص بالأدب والفيلم نشرنا حواراً مع المخرج الكبير فولكر شلوندورف حول «شرف كلارينا بلوم الضائع» المأخوذ عن قصة بنفس العنوان للكتاب الراحل هاينريش بل . أما بقية العدد ، فقد خصصناه للمحدث في المعارض الكبرى التي شهدتها ألمانيا الفيدرالية هذا العام : معرض رسوم باول كلي - معرض التابلو الفرعونية - معرض الفن التركي ، وأيضاً عن المعهد الشرقي في هامبورغ وعن الكتب والمجلات الحديثة والتي لها علاقة بالعالم العربي - الاسلافي .

(المحرر)

الفهرست

- ٤ ادجار موران : ملاحظات حول جدل ساخن : العقل والواقع الجديد
Edgar MORAN: Betrachtungen zu einer heissen Kontroverse
- ٨ كريستيان جراف فون كروكوف : لتكن لديك الشجاعة لاستخدام عقلك! التنوير لا يزال مهمة صعبة في المانيا
Christian Graf von KROCKOW: Habe Mut, dich deines eigenen Verstandes zu bedienen!
Aufklärung ist in Deutschland immer noch ein mühseliges Geschäft
- ١٤ إيفو فرنسل / كارل رادس : مناخلان في سبيل العقل
بمناسبة الطبعة الجديدة للرسائل المتبادلة بين إرنست بلوخ وجيورج لوكاتش
Ivo FRENZEL/Fritz J. RADDATZ: Zwei Streiter für die Vernunft
Zur Edition des Briefwechsels zwischen Ernst Bloch und Georg Lukács
- ٢٠ إيفو فرنسل : محاولات لانقاذ العقل - خطاب الحدائة الفلسفي
Ivo FRENZEL: Jürgen HABERMAS - Versuch einer Rettung der Vernunft.
Der Philosophische Diskurs der Moderne
- ٢٢ في العلاقة بين الأدب والعقل
Über das Verhältnis zwischen Literatur und Vernunft
- ٢٨ ميخائيل شنايدر : هل تكون الرؤيا مصدراً للأمل ؟
Michael Schneider: Apokalypse - ein Prinzip Hoffnung ? Ernst Bloch zum 100. Geburtstag
- ٣٦ سلامة موسى : تربي العلمية
Salama Musa: Über meine geistig-intellektuelle Erziehung
- ٤٢ هشام جعيط : الانتاج الفكري العربي منذ عشرين سنة
Hijam DJA'IT: Eine Analyse des arabischen Denkens der letzten 20 Jahre
- ٥٠ اردموت هالر : شهرزاد والحركة الرومانتيكية في أوروبا
Erdmute HELLER: Sheherazade und die romantische Bewegung in Europa
- ٦١ هوجو فون هوفنزنال : حول الف ليلة وليلة
Hugo von HOFMANNSTHAL: Über Tausendundeine Nacht
- ٦٢ فريتر ي . رادس : رحيل هاينريش بل ، حامل جائزة نوبل للآداب .
وفاة مرجع - هاينريش بل : شاعر ، واعظ ، مادي ، وحالم
Fritz J. RADDATZ: Abschied vom Nobelpreisträger für Literatur
Der Tod einer Institution - Heinrich Böll: Poet und Prediger - Materialist und Träumer.
- ٦٦ هاينريش بل : في الأدب والأخلاق والسياسة
Heinrich BÖLL: Über Literatur, Moral und Politik

يقدم الناشر ودار النشر شكرهم لكل من ساهم بمومته في إعداد هذا العدد

إدارة التحرير : Adresse der Redaktion: Erdmute Heller, Franz-Joseph-Str. 41, D-8000 München 40

©Inter Nationes, Bonn, F. Bruckmann, München

- ٦٧ قصيدة هاينريش بلل الأخيرة
Heinrich BÖLL'S letztes Gedicht
- ٦٨ مونیکا ماورر : «فكر وفن» تحاور المخرج فولكر شلوندورف - هاينريش بلل وكاترينا بلوم
Monica MAURER: Zeitgeschichte, Literatur und Film. Interview mit Volker Schlöndorff zur Verfilmung der Böll-Novelle „Die verlorene Ehre der Katharina Blum“.
- ٧٤ هاينريش بلل : نادرة لحظ من اخلاقية العمل
Heinrich BÖLL: Anekdote zur Senkung der Arbeitsmoral
- ٧٦ إلفريده جروس : الفن التركي في العهد العثماني
Elfriede GROSS: Türkische Kunst und Kultur aus osmanischer Zeit.
Zu einer Ausstellung in Frankfurt und Essen
- ٨٢ ديتريش فيلدونج : علم الآثار المصرية وآفاق التسعينات
مؤتمر علماء الآثار الدولي الرابع المنعقد في ميونيخ عام ١٩٨٥
Dietrich WILDUNG: Ägyptologie für die Neunzigerjahre.
4. Internationaler Ägyptologen-Kongress München 1985
- ٨٤ حبيب جتجاني : ملاحظات حول المؤتمر السادس عشر للعلوم والدراسات التاريخية
Habib JANHANI: Internationale Historiker-Konferenz in Stuttgart
- ٨٥ ستيفان فيلد : حول الملتقى الثالث والعشرين للمستشرقين الألمان
Stefan WILD: Marginalien zum 23. Deutschen Orientalistentag
- ٨٦ عزيز القزاز : معهد الشرق الألماني في هامبورج
Aziz Al-QAZAZ: 25 Jahre Orient-Institut Hamburg
- ٨٨ ستيفان جرون : ملاحظات حول رسوم باول كلي
Stefan GRÜN: Paul Klee als Zeichner
- ٩٠ الأحداث الثقافية في ألمانيا
KULTUR-CHRONIK
Literaturpreise und neue Bücher über die arabische Welt
- ٩٥ تحية الى هانس كالا وزوجته السيدة زيغريد
Hommage an Hans und Sigrid Kahle
- ٩٦ تحية الى الدكتور هورست شيرمر
Abschied von Dr. Horst Schirmer

صورة الغلاف: فريدنبرايش هوندترتاسر : سبع وتسعون رأساً ، ١٩٥٢ ، مجموعة بازيل جولاندريس ، باريس ، لوزان ، أثينا .
الغلاف الداخلي الأول : كاي نيلسون - رسوم مستوحاة من قصص ألف ليلة وليلة الغلاف الداخلي الثاني : كاي نيلسون - رسوم مستوحاة من قصص ألف ليلة وليلة
(هوندترتاسر ، رسام نمساوي ، تحفل سنة ١٩٨٤ على جائزة «الفن والحيط» وذلك من أجل أعماله الداعية الى حياة إنسانية أفضل ، وإلى ضرورة مقاومة التطور الذي يهدد الطبيعة والانسان في آن معاً .

تظهر مجلة «فكر وفن» العربية مؤقّتا مرتين في السنة : النسخة ١٤ مارك ألماني ، النسخة الطلبة ٧ مارك ألماني .
تقدّم طلبات الاشتراك الى دار النشر .

الطباعة : F. Bruckmann KG, Graphische Kunstanstalten, München

صف الحروف : Orient-Satz, R. Nickodaim/Berlin

الترجمة : د. مدوح عثري ، د. م. علي عثري ، د. أ. حليمي ، د. أ. خوراهه ، د. شميرفة مجدي .

ملاحظات حول جدل ساخن : العقل والواقع الجديد

نقد العقل : «إن العقل يتعامل مع الأشياء كما لو كان ديكتاتوراً . وهو لا يعترف بالأشياء الا حين يحس أنه قادر على أن يتلاعب بها .» . ويكني أن يتحول الناس الى أشياء لكي يواجهوا نفس المصير ويخضعوا خضوعاً تاماً لديكتاتورية العقل الحديث . وعندئذ يحدث الاكتمال التكافلي لفكرة النظام والكلية في ظل الكلية الشاملة . ويقول هوركهايمر وأدورنو : «العقل أكثر كلبانية من أي نظام» . ولتوضيح هذه الفكرة ، أقول بأن الكلية لا تكتمل الا حين توحد بين مكونين : مكون ديني/وصفي (مخفي) ، ومكون عقلائي / معقلن . لكن قبل أن أتحدث في هذه المسألة ، لابد أن أتفحص من جديد مسألة العقلنة التي هيمنت من خلال التقنية والبيروقراطية على جميع مجالات الحياة . ان مبدأ العقلنة هنا يربط بين النظام/الكلية والدقة وبين فكرة الاقتصاد والانتاج والفاعلية .

وقد توصلت البيروقراطية ، اعتماداً على الدقة العقلانية ، الى أن تتطور بشكل مخيف ، حتى اننا أصبحنا نحس جميعاً بتقلبها تماماً مثل ذلك المواطن الغريب ، جوزيف ك . الذي جعله فراز كافكا بطلاً لقصته «الحاكمة» . إنها ليست هناك في الدواوين ، والوزارات ، والادارات ، إنها في أعافنا ، وفي تلك المناطق الخفية من ذاتنا .

أما الصناعة فانها أصبحت تنظر الى الأشياء من زاوية واحدة : هل هي صالحة أم غير صالحة . وداخل المعامل تحوّل البشر الى مجرد آلات تقوم بنفس الحركات لساعات طويلة من أجل «ضمان الفاعلية في مجال الانتاج» . غير أنه بمرور الزمن ، تبين لنا جميعاً أن هذا الأسلوب لا يمكن أن يضمن النتائج المرتقبة . بل وربما يزيل الرغبة في العمل نهائياً . ولهذا السبب أخذت العقلنة منعرجاً آخر . وأخذت تطبق أساليب جديدة مثل تشريك العمال في الماربيح ، وفي التسيير بهدف ضمان الانتاج

«العقل لن يحد نفسه الا حين يقدم على إلغاء ذلك المطلق المزيّف الذي هو مصدر كل هيمنة عجيبة .»

(أدورنو - هوركهايمر : جدلية العقل)

«معتمداً أن نوسع عقلنا حتى يتمكن من أن يدرك فينا وعند الآخرين ما يسبق العقل وما يتجاوزه» .

(مارلو بونتي : إشارات)

خلال مرحلة طويلة ، بدت العقلانية الانسانية ، التي كانت احدى النتائج الكبرى للثورة التنويرية ، وكأنها تجسّد التقدم والتحرر الحقيقي . وكان ذلك واضحاً من خلال صراعتها المتواصل والعنيف أحياناً ضد الأساطير والأديان . كما أن رغبتها في الانتشار على نطاق واسع ، وحتى في تلك الأماكن الضائعة والخفية ، جعلت منها ركيزة قوية يعتمد عليها المسحوقون والمظلومون والمستعمرون لاستعادة حريتهم وكرامتهم وإنسانيتهم . ورغم ذلك فإن المباديء التي دعت اليها العقلانية الانسانية ، وسعت الى نشرها بين الشعوب بحماس شديد ، ظلت «مجردة» ، إذ أنها لم «تحتزم» الفروق بين الثقافات . وهو ما أدى مع مرور الزمن ، الى ما يسميه البعض الآن «بالامبريالية الثقافية» ، تلك التي تلغي وجود الثقافات الصغيرة والبدائية بل أنها تحتقرها ، وتسعى الى تدمير قيمها ومركزاتها .

لقد تحدث «هيديجر» Heidegger عن ذلك العنف الذي يخفي وراء إنسانية العقل الأوبية . فالطبيعة مطالبة دائماً بأن تمثل أمام محكمة العقل ، وأن تخضع لثغلف التجارب . والعلم ، عوض أن يغمر الطبيعة بحبه ، يدمرها ويسعى جاهداً للسيطرة عليها سيطرة كلية . والعالم بأسره محكوم عليه بأن يخضع للتكنولوجيا بدعى أنها قادرة على توفير السعادة الحقيقية .

ورغم أن «هوركهايمر» و «أدورنو» هما على طريقي نقض مع هيديجر ، فانها يصلان الى نفس النتائج بخصوص مسألة

والحفاظة على النظام . ونعتقد أن مثل هذا الأسلوب الجديد في مجال العقلنة أكثر إيجابية ، لأنه أكثر إنسانية .

ويمكن القول ، أن التصنيع ، والقنن ، والبيروقراطية ، والتقنية ، تطورت كلها حسب القواعد والمناهج العقلانية . وقد وقع استعمال الأشخاص كما لو كانوا مجرد أشياء لا تصلح إلا لأغراض تخص النظام والاقتصاد والفاعلية . غير أن هذه العقلنة لم تأت أحياناً بالإنسانية ، ويلعب القوى السياسية والاجتماعية المختلفة . هذا بخصوص الغرب . أما في المناطق الأخرى من العالم ، أي تلك التي نسميها البلدان الفقيرة أو المتخلفة ، فأنها إنزعت مثل السرطان والهمم الكثير من القيم .

من هنا يمكننا أن نتابع السير العملي للعقلنة :

(١) يمكن أن تكون العقلنة إنسانية ، حين يتعلق الأمر بتنظيم المجتمع ، وتسهيل حياة البشر ، وتطبيق تلك المبادئ التي يطمحون إليها مثل الحرية والعدالة والمساواة . وهي «إمبريالية» حين تدهام العالم بأسره وتضاعف من شقاء الشعوب التي تنازل من أجل استقلالها ، والحفاظة على ثقافتها ، وحضارتها .

(٢) وتكون العقلنة كلبانية حين تنفصل عن الإنسانية وعن النقد المناهض للدين ، وتتحد مع أسطورة كبيرة وعميقة . وعندئذ يمكن أن نرى أن العقلانية والعقلنة جذّ مزدوجين وذا وجهين : وجه تقدي وآخر رجعي . غير أن الوجه التقدي مرتبط بالعقلانية / الفكر النقدي / الإنسانية . وإذا ما انفك هذا الرباط فإن العقلنة تبدو عارية ، وعندئذ يمكنها أن تلتمح بالقوى السوداء لكي تؤسس الكلبانية التي كان «هوسرل» Husserl يسميها «عقلانية الأهرامات» .

هل ثمة عقل جديد ؟

إن العقل الجديد ، إذا ما وجد ، لا يمكن أن يكون الا معقداً ومسكوناً بالشك . أي أن يتأسس على العلاقة القوية والدائمة ، وفي نفس الوقت ، المكملة ، والمعتمدة على المنافسة والتضاد ، بين العقل واللاعقل .

(١) ليس هناك «العقل الآله» ، أي العقل المفارق

والمطلق والمكتفي بذاته . إن مثل هذا العقل الخالص ليس سوى أسطورة مغلوطة . ومهمتنا الآن ، «نستكشف» الجانب الأسطوري ، الشاسع والعميق للعقلانية ، «(أكسيلوس: آفاق العالم) . عندئذ فقط ، يمكن أن نكتشف أن العقل هو بحد ذاته أسطورة رغم أنه يدعو الى محاربتها وازالتها من أذهان الناس .

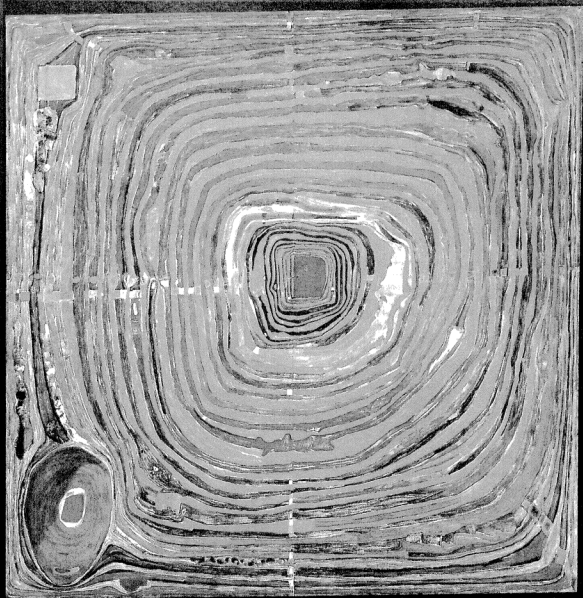
(٢) إن اللقاء بين العقل والموضوع يحدث صدئاً ما يؤدي الى يلغي كل واحد منهما الآخر . ومن الأكيد أن العقل الكلاسيكي عاجز عن قبول الواقع الذاتي . ولهذا فانه لا يستطيع البتة إدراك تلك الذاتية المستترحة تحت العقل .

(٣) هناك «تدمير ذاتي من جانب العقل نفسه» (هوركهايمر - أدورنو . حين يرفض العقل اللاعقلي الذي يجسد المقد ، وأيضاً الوجود والحياة) ، وحين يخفي لاعتقالاته نفسها ، وحين يطوّر جانبه العقلاني ، العنيف والجوربي باستمرار فانه في الآن نفسه يقوم بتقوية وتنمية لاعتقالاته نفسها التي تصبح فجأة جنوناً وفناء .

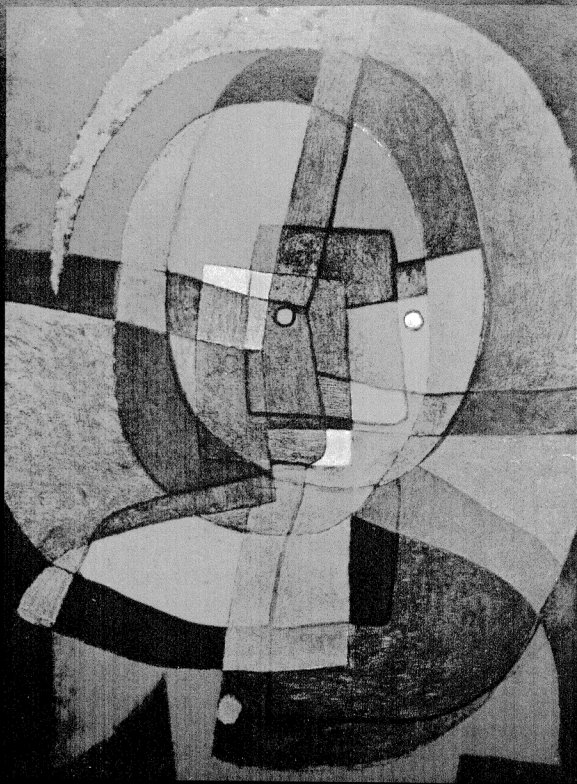
(٤) من هنا يمكن القول أن هناك تحولات في العقلانية . هناك لحظة ما يصبح فيها العقل واحداً ومختلاً ، واللاعقلي عاقلاً وحكيماً .

(٥) ليس علينا فقط أن نكتشف جنون العقل . علينا أيضاً أن نستكشف عقلانية الجنون . إن موضوع الحكمة / الجنون معقد ولكنه ثمين بالنسبة للفكر الغربي منذ الاغريق الى ايرازموس Erasmus .

ويكفي أن حدث ذلك الانفصال المؤلم في العقلانية الحديثة لكي تتعارض هذان العبارتان . ولا بد من التذكير من أن اللاعقل لا بد أن يلعب في مجال نفس الدور الذي لعبته الفوضى في العلم الجديد (Scienza Nuova) . أي أن يكون أساسياً في كل حركة تجديدية وفي كل شكل من أشكال الخلق والإبداع . «إن اللاعقل هو المصدر» قال نيتشه Nietzsche ، وهو يوضح : «في كل مكان تقريباً ، يكاد الجنون هو الذي يفتح الطريق أمام الفكر الجديد ، ويرفع المنع عن عادة ما أو عن خرافة محترمة» . ومن قبله قال أفلاطون Platon : «إن الجنون هو الذي جلب كل الحيرت تقريباً الى الاغريق» .



فريدنرايش هودرت: الطريق الكبير ، ١٩٥٥ .



بول کلی : دیپانکیتا رائس .

لتكن لديك الشجاعة لاستخدام عقلك ! التنوير لا يزال مهمة صعبة في ألمانيا

وسوف يتكفل غيري بتحمل مشقة هذه المهمة الثقيلة . أما أن أغلب الناس (وفيهم الجنس اللطيف بأكمله) يشفق على نفسه من التقدم خطوة واحدة على الطريق إلى الرشد ويعدونهم أمراً شديداً الخطر عليهم بجانب صوبته ومشقته ، فقد تكفل بإقتاعهم بذلك أولئك الأوصياء الذين تكرموا بالامساك بزمام أمورهم وتفضلوا بفرض رقابتهم عليهم . فبعد أن دمغوا حيواناتهم الأليفة بالغباء وحرصوا كل الحرص على أن يحولوا بين هذه المخلوقات الوديدة وبين التجرد على القيام بخطوة واحدة خارج «المشاية» التي حبسوا فيها خطاهم ، أخذوا يبينون لهم هول الخطر الذي يتهدد لو حاولوا السير بمفردهم . بيد أن هذا الخطر ليس كبيراً كما يدعون ، لأنهم سيتعلمون في النهاية كيف يسرون على أقدامهم بعد أن يتعثروا عدة مرات . ولكن مثلاً واحداً يضرب على بعض من سقط في الطريق كفيلاً بأن يخيف الناس ويصدم عن الشروع في أي محاولة أخرى .»

نقد النقد

مرة أخرى جل بسيطة ومعبرة فهي توضح الأمر من ناحيتين : الأولى : هناك مصلحة في إبقاء الناس على قصورهم أو بالأحرى إن محور القضية هو تحقيق السيطرة .

الثانية : تصبح فرصة الأوصياء الذين نصبوا أنفسهم أولياء على الناس صعبة إذا لم يجدوا في الناس ذاتهم ما يسميه كانط بالكلل والجن .

حقاً إنه لمن المريح أن تعوي مع الذئاب ، وأن تسبح مع التيار وأن تكون شجاعته مقرونة بجمهور كبير ، لكنها نجاعة كنيية المظهر وجبن مقنع . أما غير ذلك فيطلب «الشجاعة الأدبية» وهي شيء نادر .

«من الصعب إذن على أي إنسان أن يتمكن بمفرده من

«التنوير هو خروج الإنسان من قصوره الذي اقترفه في حق نفسه . وهذا القصور هو مجزءه عن استخدام عقله إلا بتوجيه من إنسان آخر . ويقع الذنب في هذا القصور على الإنسان نفسه عندما لا يكون السبب فيه هو الانتقار إلى العقل ، بل إلى العزم والشجاعة اللذين يخفزان عن استخدام العقل بغير توجيه من إنسان آخر . لتكن لديك الشجاعة لاستخدام عقلك ! ذلك هو شعار التنوير» .

هذه هي جل المقدمة لمقال بسيط طبقاً لحجمه ، فهو يتكون من ثمان صفحات كاملة تحت عنوان «الإجابة على سؤال : ما هو التنوير ؟ » . نشر هذا المقال قبل مائتي عام في ديسمبر ١٧٨٤ في «صحيفة برلين الشهرية» - Berlinische Monats-schrift ، وكتبه هو إيمانويل كانط . ويا لها من عبارات - كأنها نقوش ! لم يحدث قبل ذلك أو لا يكاد يوجد أحد منذ ذلك الوقت استطاع أن يعبر بهذه الدقة وهذا اليسر عما تعنيه كلمة التنوير . ليست عقيدة ولا مذنباً ، ليست صرحاً تعليمياً ولا نظرة إلى الحياة ، ولكنها خروج الإنسان من قصوره عن طريق استخدام العقل . ولا ينبغي إغفال ضرورة وجود الشجاعة - ويضيف كانط :

«إن الكلل والجن هما علة رضاء طائفة كبيرة من الناس بأن يبقوا طوال حياتهم قاصرين ، بعد أن خلصتهم الطبيعة منذ أمد بعيد من كل وصاية غريبة عليهم ، وهما كذلك علة تطوع الآخرين بفرض الوصاية عليهم . ويبدو الأمر وكأن كل واحد منهم يقول لنفسه : إن الوصاية عليّ لمريحة ! وما دمت أجد الكاتب الذي يفكر لي ، والراعي الروحي الذي يغني ضميره عن ضميري ، والطبيب الذي يقرر لي نوع الطعام الصحي الذي أتناوله ، فما حاجتي لأن أجهد نفسي ؟ ليست هناك ضرورة تدعوني للتفكير ، ما دمت أقدر على دفع الثمن ،



إيمانويل كانط كما رسمه دويلر .

للرفض ثماره : فالمعارضة - وليست الموافقة - هي التي تجبر على التأمل والتفكير . ولذلك يمثل الحوار السقراطي الفط الغربي للتنوير بحيث لا يقوم المعلم بالمخاضة والتلقين بل يطرح الأسئلة ويتابع السؤال بنقد وبحرية .

«وليس هناك شيء يتطلبه التنوير قدر ما يتطلب الحرية ، وهو في الحقيقة لا يتطلب إلا أبعد أنواع الحرية عن الضرر ، ألا وهي حرية الاستخدام العلني للعقل في كل الأمور .» وهذا تماماً ما فعله سقراط وتمت إدانته بسببه . وبلغت كانط النظر الى مشكلة أخرى : إن التنوير يشكل على أي حال قضية بعيدة الأمد ، لأنه يجب التغلب على عادات القصور المتغلغلة منذ الأزل وعلى الأفكار الجامدة التي تنشأ باستمرار ، «ولهذا

التخلص من هذا القصور الذي أوشك أن يصبح طبيعة ملازمة له . بل إن الأمر قد وصل الى حد أن يعشق هذا القصور بحيث أصبح عاجزاً عجزاً حقيقياً عن استخدام عقله . . ولهذا لن نجد إلا قلة ضئيلة استطاعت بفضل استخدامها لقولها أن تنتزع نفسها من الوصاية المفروضة عليها وتسير بخطى واثقة مطمئنة.

وماذا بعد ذلك ، لن يفلح التنوير إذا ما أصبح شأناً فردياً ، ولكنه يشكل قضية مشتركة بين الناس جميعاً ، قضية مطروحة للمناقشة العامة ، للرأي والرأي الآخر ، للنقد ونقد النقد ، خلال ذلك يمكن أن يبيت الناس الشجاعة في بعضهم البعض وحتى - أو بالأحرى - عندما تتعارض الآراء .

فلا يمكن أن يصل الجمهور إلى التنوير إلا ببطء». ولكن هذه مسألة تختلف حولها الآراء. ألا يمكن اختصار الطريق إلى الرشد، وتغيير كل شيء دفعة واحدة، بحيث يتم بالقوة إسقاط الأوصياء غير الشرعيين الذين فرضوا أنفسهم؟

اندلعت الثورة الفرنسية في فرنسا عام ١٧٨٩ بعد خمس سنوات فقط من كتابة كانط لمقاله. كانت ثورة نابغة من روح التنوير أو على أي حال مستندة إليها. لقد آذن فجر الحرية بالجليء.

وإذا رجعنا إلى كانط فسوف نجد لديه في هذا الوقت المبكر رداً مشوباً بريبة غريبة:

«... وربما نجحت ثورة في القضاء على الاستبداد الفردي والفهر القائم على الجمع والتسلط، ولكنها لا يمكن أبداً أن تؤدي إلى إصلاح حقيقي لأسلوب التفكير، بل إن ما يستجد من أحكام متحيزة لن يستخدم – شأنه في هذا شأن الأحكام القديمة – إلا في تضليل عامة الناس وجرم وراه».

ويقول كانط ما أثبت الزمن صحته منذ ذلك الحين: إن الانقلاب لا يأتي غالباً بالحرية المرجوة، بل يأتي في أكثر الحالات بالازدباب فقط، متبعاً بسيطرة القوة الجديدة – والأكثر قسوة – في ظل تغيير ظاهري للعلم.

أما مصير التنوير فينتج عنه طامة ذات شقين:

يتحول الحساس الذي كان في البداية إلى خبيثة أمل، والكتيرون من كانوا مستعدين لبذل كل شيء في سبيل الانتفاضة الكبرى يتحولون إلى المعسكر الرجعي. أما مثلوم فانهم يصابون بالذعر ويلجأون إلى القمع الوقائي، والخوف يولد الاعتداء، ومحاربة الارهاب تولد الارهاب، والقوة تولد القوة. ويصف كانط تلك العلاقات بطريقته وهو يبايع فريدريك الثاني ملك بروسيا:

«لا يستطيع أن يقول ما لا تجرؤ عليه دولة حرة إلا من لا يخشى الظلال وهو متور وملك في نفس الوقت زمام جيش جرار جيد التنظيم لضمان الأمن العام: فكروا ما شتم وفيما شتم، فقط أطيعوا. هكذا يظهر هنا مسار غريب غير متوقع للأمور البشرية، على نحو ما يظهر في ميادين أخرى، فيبدو كل شيء فيه، إذا نظرنا إليه في مجموعه عجيباً، زاخراً بالمفارقات».

ومنذ عام ١٨٧٩ تخشى القوة الفكر، بل تتخوف من ظلال الفكر. تبدأ حقبة طويلة من القهر، والحق أنها قد بدأت من قبل في بروسيا حيث صدر عام ١٧٨٨ قانون رقابة جديد، أي بعد سنتين فقط من موت فريدريك الأكبر، ومنذ ذلك الحين ظل تاريخ التنوير في ألمانيا تاريخ معاناة. لم يكن التنوير هو الذي أحدث تأثيراً عميقاً في ألمانيا، وإنما الرومانتيكية. لم يظهر النور الساطع للفكر النقدي في «ألمانيا» بحق، بل المسمات الرومانسية المظلمة تحت أشجار البلوط في ضوء القمر عند طاحونة الهواء، وأمام أطلال العصور الوسطى.

هل نحن «مواطنون راشدون»؟

في النهاية ثبت أن كراهية كل رموز التنوير وصيغها قد أصبحت طاغية، لأنها كانت في الباطن كراهية ذاتية. إن التخلي بالذات عن شجاعة استخدام العقل يولد القصور والشعور بالذنب، وهو ما لا يحتمله الإنسان بطبيعة الحال وما لا يعترف به، وإنما يكتبه في الأعماق ومن ثم ينظر للآخرين الذين تصدوا للتححر بلههم مفسدون.

حقيقة: إن تولى الاشتراكيين القوميين (النازيين) السلطة عام ١٩٣٣ وترحيب الجماهير بذلك على أنه «الانتفاضة القومية»، كذلك تدمير الديمقراطية وحرق الكتب والحمران من حماية القانون والتشريد وإعدام الفكر الناقد وإصدار البيانات وممارسة «مبادئ الزعيم» Führer، كل ذلك كان يعني في جوهره الثورة المضادة للحرية والمساواة. كان يعني الإلغاء التام للتنوير بمفهوم كانط، وكان المعنى الخفي لشعار «الحل الحاسم» هو الخلاص من عبء الرشد.

ولكن كيف يبدو الأمر بعد عام ١٩٤٥؟ وكيف هو اليوم عام ١٩٨٤؟ ألم تتغير الملامح والعلاقات تغيراً حاسماً؟ ألم تصبح ديمقراطيين أي مواطنين راشدين؟ بالتأكيد، ومع ذلك تبقى الشكوك، ولذلك إذا تأملنا عن كتب أو بحثنا على سبيل المثال في موسوعة بروكهاوس Brockhaus تحت كلمة **التنوير** لوجدنا جلاً مثل هذه: «قد أدى الانتعاش بأن كل الناس في الأصل متساوون وعقلاء وجيدين إلى إيمان كبير مفرط على الأغلب بفاعلية التعليم وبقدرة الإصلاحات الاجتماعية على تحقيق السعادة وتقدم البشرية... الاعتقاد في أمان التقدم ورفاهية التقدم أصبح مشكوكاً فيه، وبالرغم من



مارك شاغال : عمول .

ثمرة العقل الذي أصبح متكبراً ، ومن هنا يتم ذكر صوفيين كقدوة مثل «المعلم إكهارد» Meister Eckehard بالإضافة إلى أنبياء الديانات ومؤسسيها ، ببنا لا يدور الحديث حول مفكرين ناقدين أمثال ديكارت وفولتير وكانط أو بوبر .
ثانياً : ميخائيل إندو : «حكاية بلا نهاية» . تلك هي الهمسات والمهمبات القدية الحديثة التي لا يمكن إغفال صوتها تماماً ، كما لا يمكن إغفال صور المروب من تعقيدات عالمنا الحاضر الى الرومانسية والخيال . وبالمناسبة فانه ظهر في تلك الأثناء فرع متكامل من الأدب المتشابه .

ثالثاً : فرانس الت : «السلام شيء ممكن - سياسة خطية الجبل» فيها : «اتسع عالمنا ولكن طبيعتنا الاخلاقية سبق

ذلك ما زال حتى اليوم هو عصب الايديولوجيات التي تقرر مصير العالم في الشرق والغرب» .

آراء شائكة : في مقال بروكهوس أيضاً ثناء بحمل نقيضه في طياته ، هذا الثناء موجه الى جوتبولد افرايم ليسنج Lessing الذي يعد الى جانب كانط أعظم رجال التنوير الألمان : «لقد بقي حبسياً لفكر التنوير ولكنه كان عميقاً ومتنوعاً في داخله لدرجة أنه ساهم في التغلب على العقلانية المتعالية أو المعتدة بنفسها والتي أصبحت جامدة كالعقيدة» . غموض وانقسام : فمن ناحية يردد عصرنا صيحات الحرب في سبيل بلوغ الرشد : لتسقط كل أنواع الوصاية . الشعار هو التحرر : تحرر الطلاب من الأساتذة ، المطالبة بعلم «نقدي» في جامعة «نقدية» - من ذا الذي يعد نفسه اليوم تلميذاً «لأساتذ» ؟ حتى «الصبية» لا ينبغي أن تُطلق عليهم تلك التسمية . عموماً ، تحرر الشباب من عامل السن ، وتقدم سن الرشد حتى من الناحية القانونية .

تحرر المرأة من الرجل ، الأقليات من الأغليات ، الرجال والنساء الشواذ من المعايير الجنسية الطبيعية ، أو أيضاً تحرر المواطنين من وصاية السلطات ، المبادرات الشعبية التي تنتشر انتشار النار في الهشيم ، الرغبة في المساهمة في اتخاذ القرار وفي المشاركة ، الديمقراطية ليست على أنها شأن من شئون الأحزاب والمؤسسات ، بل الديمقراطية المباشرة التي تنبع من القاعدة .

ومن الناحية الأخرى نرى صغار السن مجرد أن يشبوا عن الطوق ، يعاودون البحث عن العش ودفته مرة أخرى ، وعن التعايش الجماعي وعن السكن المشترك . فالشعور مطلوب وكذلك المعاشية . الواحد البسيط هو كل شيء ، وليس المركب المقد - الالتزام العقائدي بدلاً من الارتياح والابتعاد التهكي . حتى علماء المستقبل لم تطور اقتصادي ، وبالمثل الكينة والمتصوفون وكتاب الأساطير . ويزداد الأمر وضوحاً عندما ننظر الى النجاح الكبير لبعض الكتب في السنوات الأخيرة لأنها تبين من خلال نجاحها المائل أنها قد أصابت عصب العصر . لنذكر ثلاثة أمثلة :

أولاً : اريش فروم : «أملك أم نكون - الأسس الروحية لاجتماع جديد» . وهنا يصل المرء الى «الكينونة» الإيجابية عن طريق التمتع الصوفي - و«الملكية» السلبية على العكس هي



متخلفة». من منظور التاريخ الفكري يُعد هذا نتيجة للتطور الذي يفتخر به كل المتحررين في عصرنا . ولكن الحقيقة أن عقلنا لم يتحرر بل انفصل عن المسؤولية وعن العواطف والدين والحسد . منذ العصور الوسطى ينمو العلم والتكنيك نحواً فريداً ، ولكن ما نعرفه عن الروح فهو أقل بكثير مما كان يعرفه أجدادنا السذجن كان لديهم إدراك واضح بمفهوم «الذنب» . قد أدى التنوير إلى تأخير العقل . إن المأزق الذي لطريق مسدود لعقلنا السليم .

ذُفُونٌ مِثْلُ الْمَلُوكِ

قال بيتر جلوتس رداً على ذلك : «بكل مودة أقول لكم ، إن من لديه عقول منقسمة في أصله منذ محاكم التفتيش حتى الكاردينال شلبمان يجب عليه ألا يعتبر التنوير مسئولاً عن القنبلة الذرية» .

من الناحية التاريخية هناك فارق جوهري بين مفهوم التقدم الاخلاقي للقرن الثامن عشر وبين التقدم الاقتصادي والفني للقرنين التاسع عشر والعشرين . إن إبدال عصر إنساني اخلاقي بزمان اخلاقي وفني ، وتحويل الاهتمام من مشاكل التربية الى مشاكل الانتاج وتوزيع السلع ، بالإضافة الى إحلال الصفة العاملة الفعالة للتنوير بصفة القرنين التاسع عشر والعشرين ، كل هذا أدى الى إنتاج العقلانية المحدودة القائمة على المعرفة الآلية ، وإنتاج ذلك العقل الناقص الذي يحاول نقد القديم . ولكن هذه أفكار طائشة وخطيرة تستهدف الدفع بالعقلانية الغربية الى ملكة الأموات والعودة الى العصور الوسطى .

إن التنوير في ألمانيا مهمة صعبة ، ويبدو أن الأمر سيستمر كذلك . ويصور كارل بوبر الحال عند موت كانط قبل ١٨٠ عاماً فيقول :

«لقد توفي في كونيجسبرج Königsberg ، المدينة البروسية الصغيرة التي قضى فيها ثمانين عاماً من عمره . عاش لأعوام في عزلة تامة وفكر أصدقاؤه في الاكتفاء براسم دفن بسيطة . ولكنه ذُفِنَ كذلك وهو ابن عامل من العمال البسطاء . عندما انتشر خبر وفاته تزامم الناس على بيته . استمر هذا التيار

البشري عدة أيام ، وفي يوم الدفن توقفت الحياصة في كونيجسبرج وتبع النعش أسراب من البشر لا يعرف لها مدى ودقت جميع أجراس المدينة وير مواطنو كونيجسبرج مثل هذه الجنائز ، كما يقول الذين عاصروا ذلك الوقت» .

ولكن ماذا تعني هذه الحركة الثقافية الغربية ؟ . أكاد أجزم أن كل ذُفُونٌ جرس في ذلك الوقت ، أي في عام ١٨٠٤ ، تحت الحكم المطلق لفريدريك فيلهلم الثالث كانت تعني لكانط صدى الثورة الفرنسية والأمريكية ، صدى أفكار أعوام ١٧٧٦ و ١٧٨٩ .

أصبح كانط لمواطنيه رمزاً لهذه الأفكار ، ولذا حضروا جنازته ليشكروه كعلم وكناذ بالحقوق الانسانية وداعية الى المساواة أمام القانون ، وكتكلم باسم الطبقة العالمية الوسطى والى تحرير الذات عن طريق المعرفة وربما أهم من ذلك الى السلام الدائم فوق الأرض» .

كان هذا منذ زمن بعيد . أنفق الأمريكيون كثيراً للاحتفال بعيد استقلالهم المائتين : إن لدعوة كانط للتنوير بريق تلك الكلمات الشهيرة التي خطبها توماس جيفرسون - فهي هنا كهناك تدور حول الحرية ، وبلوغ الرشد ومسؤولية البشر الذاتية .

وبالمناسبة فإن كانط يتحدث في نهاية مقاله عن السياسة بطريقة مباشرة : سوف تؤثر الرغبة في التفكير الحر وممارسته على طبيعة الشعب لكي تجعله قادراً على خلق الحرية وتقرير قواعد حكومته التي لا ينبغي عليها أن تعامل البشر كوسائل أو بتعبير كانط «كأداة» بل وفقاً لكرامته .

لماذا خصصنا إذن عام ١٩٨٤ لرؤية أرويل ، ولم نعر لفيلسوف كونيجسبرج اهتماماً ما ؟ ألا نبحت على الدوام عما يستند اليه تاريخنا ؟

«إن كرامة البشر مقدسة واحترامها والدفاع عنها فرض على سلطة الدولة» هكذا تنص المادة الأولى لدستورنا - فن أين استقينا هذا ؟

▷ غويا : حلم العقل يولد كائنات وحشية .

مناضلان في سبيل العقل

بمناسبة الطبعة الجديدة للرسائل المتبادلة بين إرنست بلوخ وجيورج لوكاتش

عمل بلوخ الضخم^(١)، ويظهر ارتباط هذا العمل بشخص وحياة مؤلفه، وأخيراً فإنه يُبين أيضاً العلاقة المتناقضة وجدانياً القائمة بين المفكرين العظميين، والتي أدت في سنوات متأخرة إلى جفوةٍ خصيةٍ بينهما. وتُوضح المراسلة بين بلوخ ولوكاتش مجلاء كيف كان هذا الجفاء المتأخر راسخاً فعلاً في هذين الطبعين المختلفين عن بعضهما أيّما اختلاف.

كان جوهر الفن عند بلوخ المتجه بالحياة هو القلق وعدم الاكتبال، حيث أنه كان يُعتبر أن «العمل الفني» الرابع لا يبدو أبداً كذلك. أما من وجهة نظر لوكاتش (الإن الوحيد وسيل أحد بيوتات النبل والثراء في بودابست، والذي أثر منذ نعومة أظفاره الزهد في الحياة) فقد كان جوهر الفن عنده هو الانسجام والصرامة الكلاسيكية؛ لقد قال عنه ماكس فير M. Weber: «كانت غاية الفن القصوى بالنسبة لوكاتش هي التحرر من الحياة لا التحرر فيها». وبينما يمكن اعتبار بلوخ واحداً من معتنقي فلسفة إفلاطون بين علماء الثقافة الماركسية «الماركسيين»؛ إذ أن فكره كان مهتماً على وجه الخصوص بعمال التراث المثالية العظيمة المفعمة بالأمل، كان لوكاتش على الجانب الآخر دائماً أشد حذلقاً ومبالغاً في الدقة عند دراسته للتقاليد الماثورة. غير أن الصفة التي يشترك فيها هي اللام العميق بأعمال الشعراء والمفكرين الألمان، والمقدرة على المعرفة الجامعة الشاملة للتيارات الفكرية، على نحو لا يعد له نظير في الجيل الذي يعيش ويتولى مهمة تلقين العلم في يومنا الحاضر.

لشهر جيورج لوكاتش، الذي درس في هايدلبرج وباريس وبرلين، يؤلفه عن نظرية الرواية عام ١٩٣٠ الذي كان في بداية الأمر ملتزماً في جوهره بالمثالية الفلسفية. وقد أصبحت

بطلان من أبطال التاريخ الفكري الألماني كانا سيبلغان من العمر هذا العام مائة سنة، هما: جيورج لوكاتش G. Lukács (في ١٣ أبريل ١٩٨٥) وإرنست بلوخ E. Bloch (في ٧ يوليو ١٩٨٥). وأنها لمصادفة رائعة أن يتيج إكتشاف غير متوقع في خزانة أحد البنوك في هايدلبرج نشر رسائل إرنست بلوخ في هذا العام الذي يحتفل فيه بذكره الثوية. حوالي مائة من تلك الرسائل موجهة إلى صديقه ورفيق كفاحه جيورج لوكاتش. وإنه وإن لم يكن هناك في هذا التراسل غوى جديدة لفلسفة بلوخ، إلا أنه يفتح الأنقى لنظرة في عملية نشوء



إرنست بلوخ.

(١) بعمله المسمى Experimentum، في «التجربة الانسانية» أرسى بلوخ وغيره ٨٩ سنة اللجنة الثمينة لصرح كثر فكري موسوعي، كان مُشعماً منذ البداية ليكون «نظاماً».

هذه المحاولة التاريخية حجر أساس في تفكيره فيما بعد .
«الرواية في صورة عهد التورط الكامل في الإثم ، ويجب أن
تظل الصورة السائدة ، طالما بقي العالم تحت سلطان هذه
الأجرام السماوية» ، هكذا صاغ لوكاتش كلماته بروعة في نهاية
مقاله . كان وَطَرُ لوكاتش ومأربه الاهتمام الى الكيفية التي
يتحقق بها إظهار الحقيقة عن طريق الفن والشعر والفكر .
إنه السؤال القديم قَدَم الأزل عن العلاقة بين الكون والوعي
مقاله . كان هدف لوكاتش الاهتمام الى الكيفية التي يتحقق
بها إظهار الحقيقة عن طريق الفن والشعر والفكر . إنه
السؤال القديم قَدَم الأزل عن العلاقة بين الكون والوعي الذي
شغل بشكله الماركسي المنصِّر المفكر النمطي لوكاتش ما
ينيف عن عشرات السنين خلال حياته . وقد مرَّ الطريق
المؤدي الى هناك بعملٍ تم إنتاجه في عاَمَي ١٩٢١/١٩٢٢
وظهر تحت عنوان : «التاريخ والوعي الطبقي» -Geschichte
und Klassenbewußtsein . وقد ساهم هذا العمل بصورة
إنسانية في التوجه اليساري لكثير من المثقفين الأوروبيين .
وفي نظَره ألفاهما فيما بعد - عام ١٩٦٢ - على الماضي ، تنقل
لوكاتش من هذا العمل الى حد بعيد . كان فكر لوكاتش يدور
مراراً وتكراراً حول البرهنة على أن الملاحظات التي نعيها
يوماً في العلم والفن تعتمد دائماً على نفس الحقيقة الموضوعية
الواحدة . إن قراءة هذه النصوص متمعة - أيضاً بالنسبة
لشخص مضطرب على ضوء العلوم الطبيعية الحديثة الى دحض
تلك الدعوى بوجود حقيقة موضوعية لا مراء فيها .

عندما عاد جيورج لوكاتش عقب الحرب العالمية الثانية الى
وطنه المجر أصبح منذ ذلك الحين حجة لها اعتبارها ، إلا أنه
كان يُنظرُ إليه بعين الاتريب والشك من قِبَل الكتلة
الشرقية . وبسبب تنديده بالانتاج المبثذل للواقعية
الاشتراكية لم يكن له أصدقاء في موسكو . إن عمله الأدبي
خراب العقل Die Zerstörung der Vernunft الذي ظهر في
السنوات الأخيرة من حياته ، لجدير بالمرء اليوم - أربعون
عاماً بعد إنتهاء الحرب - أن يقرأه مرة أخرى . إنه يُعلِّمنا أنه
«لا يوجد مذهب في الحياة مُتَّزِع من الإثم» .

ضرورة تحطيم ظاهر العالم القديم ، لكن لا بد رغم ذلك من
إنتشال أمهه المدفون لكي يفضي به الى عالم جديد . ذلك ما
كان يراه لوكاتش كواجب للفن . إنه يتفق في هذه الرؤية

مع بلزاك لامع فلوبير ، ومع توماس من لامع بريخت ولا مع
بكيت بالذات على الإطلاق . «الإنسان هو كائن خلق من
أجل تحقيق الانسجام» ، هكذا كان يقول لوكاتش .

إما إرنست بلوخ فإنه كان يرى أن فرصة الفن تتمثل في
إعتصار بُشْرَى عالمٍ جديد تماماً من أنقاض العالم القديم
المتخَرِّق المالك . كان الرأي السائد إبتداء من كافكا عبر
بيكاثو حتى أيسلر وبريخت ، ومن جيمس جويس عبر
ماليشيتش حتى بروكوفيف هو أن : «الإنسان ليس
متكاملاً في عطائه الفني حتى الآن» . ولذلك فإن العمل الفني
الحقيقي بالنسبة لإرنست بلوخ يظل دائماً شَذَرَةً ، إنه لا
يستطيع إلا أن يكون تقريبياً . إنه محاولة لفك غموض حقيقة
دنيئة وفقاً لرأي فرانس مارك ، الذي كتب مرة يقول :
«الصور هي تمثيل لانبثاقنا وظهورنا في مكان آخر» ، خلف
كل شعر ، خلف كل نثر يكن شيء لا نعرفه : «حيّة الفردوس
هي عندئذ بمثابة دودة لإلهة العقل» ، هكذا يكتب بلوخ



لوكاتش .

في تحليله لرواية بريخت «الفرسان - چي» - Seerüber Jenny ، المادة في مفهوم المادية لبلوخ هي «منبت الأشياء» . إن بلوخ متفق مع قول فلوبر : «Ce qui n'est pas forme» ، كل ما ليس مشكلاً ليس له وجود» . كان بلوخ مفتوناً بالشاعنة الأسطورية التي تدعي أن ميخائيل أنجلو كان يرى في كل كتلة رخام أشكالاً «نائة» في أعماقه : إن المادة ليست «كياناً» بل «إمكاناتاً» .

تفكير بلوخ الخيالي البيوطوي ، «أحلامه إلى الأمام» ، «مبدأ الأمل» الذي كان يؤمن به ، كل ذلك يستمد قوته الحافزة من فكرة «الإمكانية» هذه . نظرية بلوخ الرئيسية هي بالتالي الاختناع بأن تشوق المادة لأن تصبح شكلاً هو خلية النمو المنتجة للوعي والعلم النظري ومن ثم للتطبيق العملي . ولكن نظراً لأن الفن لا يمكنه أن يكون إلا تقريباً - أي عملية إنسانية إلى ما وراء حدود المادة - فإنه لا ينبغي له أن يكون الاثنين معاً أبداً : لا ينبغي له أن يكون إنكساراً ولا أن يكون كاملاً . لأنه لو كان إنكساراً للوجود لبق دون سر ، ودون بُعد ، ويعني ذلك استناداً إلى المراجع الأدبية : المؤلفون الذين إتبعوا قاعدة الانعكاس «لا يسمعون سوى ما هو عادي وسطي» ، إنهم لا يسمعون ما يحدث» . غير أن الفن الذي يظهر دائماً أشياء مخفية ومستترة بجوهره القدرة النصالية على السير قدماً إلى الأمام - وهو لذلك مفهوم سياسي بصفة رئيسية ، وإلى حد ما ممارسة ثورية - الفن في وجهة نظر بلوخ ليس له وظيفة التزيين . إنه أمل يريد أن يتفجر . وهو لهذا لا يستطيع أن يخمد ولا أن يؤبد . من واجب الفن أن يكون معادياً لكل ما هو موجود وقائم ، يتحتم عليه أن يفتح بالتفجير الشقوق والصدوع .

على نحو مختلف تماماً يفهم جيورج لوكتش واجب الفن . إنه يرى في شجوة التدمير الخلاقة لدى بلوخ أمراً من جنون العظمة ومن غرابة الأطوار . ومن موقفه السلمي من الأدب الحديث بدأ من قبل مع المذهب الطبيعي . ويرى لوكتش أن تطور المذهب الطبيعي عبر المذهب التعبيري نحو صامويل بكيت كان طريق ضلال نحو التدهور لا مثيل له . ذلك لأن : الخير والجمال من وجهة نظر لوكتش متطابقان . و دعواه إلى الترابط الفني مناقضة تماماً لمفهوم بلوخ حول الفن . إنها دعوى

تطالب بالكليّة . وهذه الكليّة لا يجدها لوكتش إلا في الرواية الواقعية - وعلى وجه الخصوص في رواية القرن التاسع عشر حتى توماس من أو في الدراما الكلاسيكية (أو المقلدة للطرار الكلاسيكي) . ويرى لوكتش في هذه الكليّة استبداداً أو إلغاء للواقع البغيض بآخر أحسن . إن هدف لوكتش اخلاقي ، يطمح إلى تغيير الواقع ، وبالتالي الحياة أيضاً عن طريق الفن .

هنا يمكن اختلاف لوكتش ليس فقط مع بلوخ ، بل أيضاً مع بريخت . ذلك لأن بريخت لا يريد تغيير الحياة ، بل يود تغيير المجتمع . يرى بريخت أن جوهر الفن يمكن في تمثيلة لتناقضات الواقع . في هذا الاختلاف الأساسي بين لوكتش وبلوخ لا يتجلى التناقض في مفهوم كلا المفكرين بحسب ، بل يظهر فيه أيضاً التفاوت الكامل في الصورة الانسانية لكليهما . وقد تركت هذه الصورة الانسانية المختلفة في السنوات المتأخرة أثرها بشدة أيضاً في العلاقات الشخصية بين من كانا في الأصل صديقين ، ثم تقطعت وصلتهما ودبت الجفوة بينا أكثر فأكثر على مدى حياتهما .

إن الرسائل المتبادلة بين هذين الرجلين العظميين من رجالات الفكر في القرن العشرين ، والتي نُشرت حالياً - في عام الاحتفال بالذكرى المئوية لها - ولأول مرة باللغة الألمانية هي مكانة امتدت لفترة من الزمن بلغت سبعين سنة (من ١٩٠٣ حتى ١٩٧٥) . وهي تعطي نظرة عميقة في تطوّر عملية الشقاق الذي دبّ بين هذين الحريرين لتلك الخطابات ، وفي تركيب الشخصية المختلف تماماً لكل منهما . وأكثر من ذلك أيضاً فإن خطابات إرنست بلوخ إلى جيورج لوكتش وإلى غيره من المعاصرين - من أمثال فالتر بنيامين وماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو وهربرت ماركوزه وغيرهم - تطلع على شبكة من العلاقات الوشيعة بين أساطين الفكر في ذلك العهد ، لها أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الفكر في القرن الذي نعيش فيه . وقد احتلّ إرنست بلوخ بين هؤلاء المفكرين مركزاً لم يكن وسيطاً بحسب ، بل كان أيضاً أساسياً ورائداً ، نظراً لما كان يتمتع به من مكانة بارزة . أحد الأسباب التي أدت في سنوات لاحقة إلى القطيعة بين بلوخ

أفضل « لشخص طُوِّحت به الطوايح ، بيد أنه يُلقى مع ذلك نظرة على المستقبل مفتوحة بعزيمة إصرار لا تعرف الكلل وببطاقة إبداع خلّاقة قاهرة ، دون أن يُضحي مع ذلك بالماضي ولا بالحاضر - مثلما فعل بلوخ أيضاً في أعماله : العالم الذي قاضاه وأدّاه لم يتخلّى عنه أبداً ، بل كان يحتفظ دائماً بشيء من سحر الأشياء التي قام هو بتجريبها من السحر . هذه التزعة الى التوفيق والتوسط في تفكيره كانت على الدوام متأصلة أيضاً في علاقاته الشخصية التي تحكي خطاباته تاريخها المليء بالتوتر والآثارة .

☆

وصديق صباه جيورج لوكاتش ، عبّر عنه بلوخ في خطاب وجّههُ الى لوكاتش على النحو التالي : «... لأنه لا تتوفر بينك وبينني على الاطلاق علاقة روحية ممكنة ولا رؤية مشتركة ، ولأنك تستطيع على نحو أسهل بكثير مي الفصل بين الكيان والعمل » . إلا أن عدم القدرة هذه على الفصل بين الكيان والعمل قد أوصل إرنست بلوخ أيضاً الى المجد : إن خطاباته تقدّم دليلاً على هذه الوحدة بين الشخص والعمل . إذ أن نظرية الأمل تقوم وتسقط بعمل نبيها : ما يبرق من ثنايا تلك الرسائل والأقوال الصادرة عن بلوخ ، والتي تبرز غالباً برمتها من غياهب ظلمة اللحظة التي يحياها إما هي «أحلام بحياة

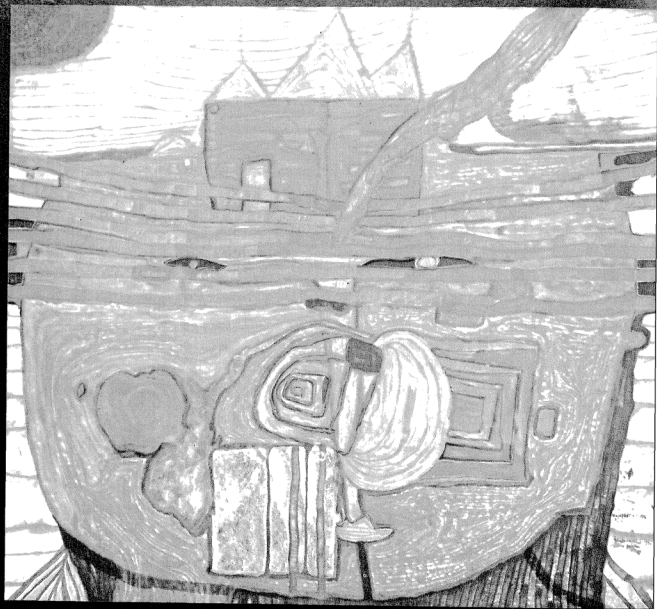


1933 ع ٥٥

gial or karant



فریدنسرایش هوندرتقاسر : راس دو بعمدين .



فریدنسرایش هوندرفتاش

محاولات لانقاذ العقل

كتاب يورغن هابرماس «خطاب الحداثة الفلسفي»

Jürgen HABERMAS Der philosophische Diskurs der Moderne.
Zwölf Vorlesungen. Suhrkamp Verlag, Frankfurt am Main.

«تدمير العقل»، ويذكرنا في هذه المناسبة مؤلف شهر لجورج لوكا. غير أن هابرماس، خلافاً للوكا، لا يقيس إنجازات التقاليد بمقاييس الماركسية الوتوقية. بل أن رهافة تحسه لمواقف المفكرين الذين يتناولهم بالنقاش شديدة جداً. فهو لا يتمكن من عرض آرائه بنبل وراعاة تربوية متناهية غصب، بل ينجح كذلك في استخراج تناقضات المفكرين الذين يعالجهم وتورطاتهم الفكرية التي لا مخرج منها، وذلك من خلال نصوصهم نفسها. فهابرماس هنا يأخذ خصومه مأخذ الجد، ويوليهم الاحترام والتقدير، ويجرد حججه النقدية ضدهم من كل منازعة شخصية.

إن من أراد أن يوجه هجوماً فلسفياً على لاعتقالية الأعوام المئة الأخيرة، فعليه أن يعود إلى ما وراء نيتشه ويبدأ هناك بأسئلته، حيث كان العقل المتنور يحافظ على مركزه الذي لا يعترضه منازع، أي عند هيجل. فهذا ما يفعله هابرماس تماماً، كما فعل قبله كارل لوفيت أو إرنست بلوخ أو جيجورج لوكا أيضاً. لأن أن على المرء ألا ينخدع من هذا المدخل التقليدي، إن لم نقل «العتيق البالي». إذ أن هابرماس يجادل ويقدم الحجج، وهذا ما لا يتضح إلا في نهاية كتابه طبعاً. وذلك دوماً بالنظر إلى منطق فلسفي جديد خاص به. لقد اكتشف هيجل «الذاتية» كبداً للعصر الحديث - عصر العقل.

وقد شرح الذاتية بمفاهيم كالحرية والتفكير. وقد حصل البشر في طريقهم من عهد الإصلاح البروتستانتي عبر عصر التنوير وحتى الثورة الفرنسية، على الحرية، وبدؤوا في التطور كأفراد كما لم يحدث ذلك من قبل إطلاقاً، وحصلوا على حق النقد، وعدم الاعتراف بشيء إلا بعد الفصل والتدقيق، وأصبحوا قادرين بذلك على الاستقلال في التصرف، بحيث أصبح كل شخص مسؤولاً عما يفعل. وقد أدت الفلسفة كمنفعة تعرف نفسها، أي كتنكير خالص، أدت فوق ذلك إلى فهم العصر لذاته. ويقول هابرماس بحق أن هيجل كان أول من جعل التاريخ المعاصر موضوعاً فلسفياً، غير أنه لم يحدد جوهر العصر الحديث غصب، بل أنه مثل بتفكيره أيضاً تناقضات الحداثة وزناعاتها ومظاهرها الاغترابية. وقد أدى الفصل الحاسم بين الأمان والعلم إلى نشوء العلوم الحديثة، وبذلك إلى السيطرة التقنية الاقتصادية على الأرض بصورة تزداد كلية وسهولاً. وقد انهارت وحدة

منذ أبرز نيتشه هيئة الانسان الأخير في كتابه «هكذا تكلم زرادشت» أخذ كل من الفلسفة والشعر والنقد الثقافي، وبصنع متنومة ومؤثرة أحياناً، في الاعلان عن نهاية العصر الحالي. فقد وصف أوزفالد شينجلر سقوط العالم الغربي، كما تكهن هايدجر بنهاية الميتافيزيقا ونادى ألفرد فير بتوديع التاريخ القائم، كما طرح رومانو غوارديني موضوع نهاية العصر الحديث. ويعرب هوفمترتال وريلكه وكافكا في نتائجهم، وكل بطريقته الخاصة، عن وعي قوي جداً بنهاية العصر، وكما يبدو، فإن عصر العقل، الذي ابتدع بكثير من الانتداف والحماسة المدنية العالمية الحالية، المحددة بالطابع الأوروبي وذلك منذ عهد التنوير باسم التقدم والحرية والمساواة والنساع، قد استهلك وأشرف على نهايته. وتبدو الكوارث السياسية لقرننا الحالي في مفعولها وكأنها أدلة وبراهين مؤيدة لتنبؤات المنذرين والانبياة السابقين. غير أن هذا الوداع الذهني للحداثة الذي نستطيع ملاحظته في كل مكان اليوم لا يتعلق إلا بتصور العصر لذاته ثقافياً، وليس بدنياميكيته السياسية والاقتصادية التي ما زالت وثابة لا يعيقها عائق.

غير أن يورغن هابرماس يسيى في كتابه الجديد إلى التدليل على أن الجهود الفلسفية للتغلب على الحداثة وللإفراق عنها لم تؤد حتى الآن إلا إلى طرق مسدودة وخطرة، فهو ينبري لكشف النقاب عن التناقضات في تفكير هايدجر، وكذلك في تفكير معلقته هوركاير وأودرونو. وهو يخوض الزلال الفكري في مواجهة تزيرو وفوكو وياناي - ثم يهاجم من جديد خصمه الدائم نيكلاس لومان.

ويجدر بنا أن نقول هنا هذه الكلمة مقدماً: إن من أراد لنفسه أن يطالع على النصوص التي لا تخلو من الصعوبة لفصول الكتاب المتداخلة بدقة وعناية تامتين، فانه سيلقي متناً خلافاً بكتاباً من كتب الفلسفة الألمانية الهامة القليلة في الأعوام العشرين الماضية، أي منذ ظهور كتاب أودرونو «الجدلية السلبية».

إن كتاب «خطاب الحداثة الفلسفي» مؤلف يسعى إلى مواجهة

صورة العالم التي كانت سابقاً تقوم على الإيمان ، وبدأ كل من الاقتصاد والدولة ، والعلم والفن ، والدين والاخلاق ، يستقل شأناً لنفسه حياته الخاصة . كذلك لم تستطع نظرية «العقل التوفيقى» التي ابتدعها هيجل أن تحل دون أن يبقى كل تنوير جدلياً ، ودون أن يجعل كل تقدم في طياته خبرات جديدة للجانب السلبى .

بهذه الموضوعات المعروفة في حد ذاتها والمطروحة بوضوح يرى هايرماس افتتاح خطاب الحداثة . ومن مقومات هذا الخطاب «الذي ما زلنا نخوضها حتى اليوم دون انقطاع ، الإدراك القائل بأن الفلسفة أضررت على نهايتها» . وما لا شك فيه أن الفيزياء وعلم الأحياء وعلم النفس والعلوم التاريخية قد أطلقت لأول مرة مواضيع تمس النظرة الى الكون في القرن التاسع عشر ، فأثرت على كيفية إدراك الزمن دون وساطة الفلسفة . وقد واجهت الفلسفة المحاصرة بهذه الصورة هذه التحديات بطرق مختلفة . ولكن بينما لم يكن هيجل ولا تلامذته المباشرين من اليسار أو اليمين يشكون في إنجازات الحداثة ولا يودون التشكيك في مبدأ الحرية الذاتية القائمة على العقل ، فقد اختلف الأمر عن ذلك لدى نيتشه .

لقد أراد نيتشه أن يكون أول من ينسف العقلانية الغربية ويفجرها وكما يقول رأي مركزى لدى هايرماس ، فإن اللاإنسانية عند نيتشه هي التحدي الحقيقي لخطاب الحداثة . وبذلك يصبح نيتشه بالنسبة الى هايرماس «محور» الدخول الى ما بعد الحداثة ، ونقطة الارتكاز لجميع التطورات الخطيرة التي أدت الى رفض العقل . ولا تبلغ الحماسة الشديدة لدى هايرماس في مناقشته بقدر ما تبلغ في معالجته لآراء نيتشه . فالمفكر ، الذي أراد أن يحل تفكير الأسطورة الديونيسية والنشوة السكرى محل التصرف العقلاني الهادف والحافض للتقليل العلمى ، تحلّى في نقده للحداثة عن الاحتفاظ بمضمونها التحرري .

إن نظرة نيتشه هذه محدودة جداً ، لأنها تظل نافذة المفعول بالنظر الى ثقيل الأجيال التالية وفلسفتهم . وبدل هايرماس على ذلك بصورة رائعة في تفسيره لآراء هايديجر الأخيرة ، الذي يقوم بمحاولة التوفيق على نيتشه في تدميره للعقل . وفي هذا السياق تندرج كذلك الفصول الخاصة بالفرنسيين باتاني ودريزا وفوكو ، الذين يستوحون آراء هايديجر فيقدمون صنفاً آخرى من معابر الغروب الممكنة الى اللاعقلانية .

وقد يصاب المرء بالعجب في بداية الأمر لعدم تنوع هايرماس عن نقده ، كتلميذ لامع ، لمعلميه هوركايمر وأودورنو ، مؤلفي كتاب جدلية التنوير ذلك الكتاب الذي أحاطه جيل شباب ١٩٦٨

وستين بقديسية رفيعة . إلا أن هايرماس يُبدي بصورة مقنعة ، ولأول مرة على الإطلاق ، كما يبدو لي ، أن مؤسسى المدرسة الفرانكفونية مدينان لنتيشه بأكثر من «مجرد استراتيجة نقد ايدولوجي موجه ضد الايدولوجيا بالذات» ، إذ أن هوركايمر وأودورنو لا ينصفان المثل العقلانية للحداثة الثقافية ، ولكن هذه المثل بالذات هو الذي يريد هايرماس أن يتمسك به . ويعتبر هايرماس اليوم وقوع هوركايمر وأودورنو في مفارقة يضئران عليه ، وذلك في الحالات التي أراد المفكرون الآخرون أن يقدموا تعليقات نهائية لها ، بأنها أتت كما قواها في روح العناد وأنها فخماً بطلب العقل في القدرة على توجيه الحياة ، تماماً كما فعلت نظريات سياسة القوة التي طرحها أتباع نيتشه . ومن المحتمل أن يثير هذا الفصل ، الذي اعتبره الحدث الحقيقي في الكتاب ، زعومة من المعارضة والنفاش .

إن نقد هايرماس سيُغاس بالدرجة الأولى بالخارج الذي يُعده بنفسه لحل أزمة الفلسفة . وكما أبدى بصورة مقنعة ، فإن النقد الجذري المتطرف للعقل يفرض نمطاً باهظاً جداً من أجل توديع العصر الحديث . ومن الناحية الأخرى فإن هايرماس يدرك بوضوح أن مسألة إعادة الاعتبار لمفهوم العقل قضية تنطوي على «المجازفة» . إذ لا نستطيع العودة بكل بساطة الى ديكلارت وكانط وهيجل .

ولذا فإن هايرماس يحاول إيجاد الحجج عن نظريته الخاصة بالتصرف الاتصالي التفاهي ، وهي النظرية التي سبق أن شرحتها في مؤلفاته الأخرى . فالبشر مرتبطون في عوالم حياتية ينتصرون داخلها بفرض التفاهم في شبكة من العلاقات والمضامين والرموز الاشارية . وبذلك لا بد من إمكان تحقيق الاتفاق العقلاني ، حتى وإن ظل مثل هذا الوفاق معرضاً لخطر بسبب الانتباهات اللغوية .

وهكذا لا تنقذ ذاتية هيجل المجردة ، وإنما مجال التصرف العقلاني لجميع الذوات المنفردة التي يحتاج بعضها الى البعض الآخر ، والتي لا تخفى - كما هو الحال لدى لومان - في أنظمة غير شخصية . وكما يعلم هايرماس نفسه ، فإن هذه النظرية تبدو مترتبة بعض الشيء . وهي تخطيط مثالي يعتمد على الأمل في ضرورة حصول العقل في هذا العالم على فرصة البقاء والوجود بكل تأكيد .

أما ماذا سيكون عليه التصرف الاتصالي التفاهي في التطبيق العملي بالفعل ، فهذه مسألة تقتضي من المؤلف إيضاحاً أكثر جلاء في أعماله التالية .

وعلى ذلك سيتوقف مدى مقدرة هايرماس على متابعة خطاب الحداثة ومجاهاة خصومه بصورة فعالة .

في العلاقة بين الأدب والعقل

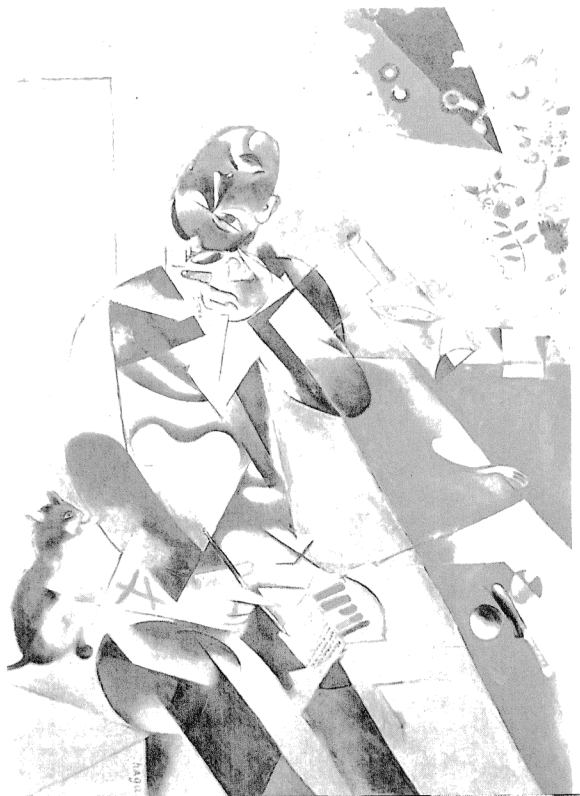
ويكاد يكون موقف كانط Kant مطابقاً لموقف روسو ، ذلك أنه يرى أن الأدب والفن هما دائماً خارج دائرة العقل النظري أو العقل التطبيقي الخاضعين لضروريات وأهداف واضحة . ولذا فإن الأدب حسب رأيه لا يجب بأي حال من الأحوال أن ينتصب مدافعاً عن العقل النظري ولا عن هذا العقل الأدبي الذي يسميه **العقل التطبيقي** والذي كان مهيماً على الفكر العلمي خلال القرن الثامن عشر عند بدء الثورة الصناعية . ومن الضروري - لمعالجة هذه المسألة - العودة إلى سقراط وروسو ثم إلى سارتر Sartre وبرتولد برشت B. Brecht خاصة في فترة شيخوخته العثور على أفكار جديدة حول مفاهيم ما يمكن أن نسميه بالأدب العقلاني وأيضاً حول الاتجاهات الكبرى في الأدب المعاصر . والملاحظة التي يمكن تأكيدها في هذا المجال هي أن القيمة الفنية للأثر الأدبي لا تخضع إطلاقاً للقوانين والأساليب العقلانية . من ذلك أننا نستطيع القول بأن «مذكرات حزلون» لغونتر غراس Günter Grass أكثر عقلانية من روايته «طبلة الصفح» ولكنها ليست أكثر منها قيمة على المستوى الفني . وكذلك الأمر بالنسبة لـ «هرمن ودوروفي» و «آلم فتر» لغوته Goethe.

ودون أن نفكر كثيراً نحاول أن نقبل ما أراد أن يؤكد لنا سقراط وهو أن الأدب لا علاقة له بالعقل إلا إذا ما تمت «تنقيته» و«تصفيته» من كل شائبة لا عقلانية . وهو يقول في كتاب «البولييتيا» في أنه إذا ما كان ملزماً على الشعراء أن يكذبوا فلا بد أن يكذبوا بطريقة جميلة . ولا بد أن يتمتعوا عن إظهار الآلهة في صورة بشعة أو فظيعة وأن يكون الحجم في كتاباتهم غير مخيف والأبطال كائنات ملائكية وريية . ويعمل سقراط رؤيته الإيجابية والمتفائلة هذه بأنه إذا ما خالف الشعراء ذلك فإن الكذب يصبح شائماً بين الناس وإن الانسان ينفصل عن الآلهة وأن لأحد يصبح راعياً في الموت أو في أن يكون بطلاً غير أننا حين نتمتع ملياً في ما قاله سقراط نكتشف أن رؤيته الإيجابية والمتفائلة تخفي جهاز رقابة فظيع يحتوي على كل أساليب المنع الإقطاعية

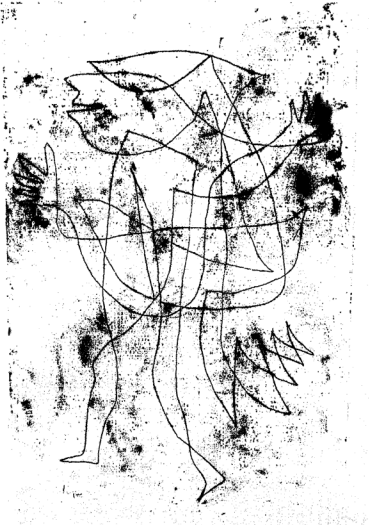
العلم ! النبالة الجديدة ! التقدم . العالم يسير إلى الأمام ! لا يلوي رأسه إلى الخلف ؟ ! » .

(رابسو - فصل في الجحيم)

البحث في مسألة العلاقة بين الأدب والعقل موضوع واسع . بل أنه يبدو قديماً وأكاديمياً . ومنذ أمد بعيد خاض فيه المثقفون والفلاسفة ودار جدال طويل حوله . والآن مرّ حوالي ٢٤٠٠ سنة منذ أن تحوّل سقراط إلى أثينا لحضور احتفالات دارت خلالها مناقشات حادة حول مفهوم العدالة . وكعادته غاص سقراط عميقاً في الموضوع وذهب إلى حد طرح مفهوم الدولة العادلة والعناصر المكونة لها . وفي كتاب «البولييتيا» Politeia يتساءل أفلاطون عما إذا كان ممكناً قبول الشعراء والأدباء في هذه الدولة العادلة . وفي المرتين إيجاب بالسلب على هذه المسألة . ذلك أن سقراط Sokrates ومن بعده أفلاطون Platon يعتقدان أن الشعر والأدب لا يمكن أن تأسس دولة تعتمد على المفاهيم العقلانية ؛ إذ أنها لا يلتقيان في شيء مع العقل وتطبيقاتهما يتعارض مع أسسه وقوانينه . وقد ظلت هذه الفكرة قائمة ومؤثرة إلى حد العصر الكلاسيكية ، أي إلى القرن الثامن عشر . في هذه الفترة كان التنوير الأدبي في أوج قوته ، غير أن روسو Rousseau عاد إلى نبش تلك الأطروحات القديمة والمتشعبة وأعلن بصوت عال أن الأدب هو المسؤول عن انقسام العلاقة بين الطبيعة والعقل وبين السعادة والفضيلة ، هذا الانقسام الذي ازداد استفحالاً بحلول كارثة العصور الحديثة . وما اعتقده سقراط ذو النزعة الافلاطونية اكتشافاً كبيراً (ذلك أن رفضه للأدب خارج نور العقل ليس سوى طوباوية جديدة) ، بدا عند روسو ثقيلًا وشكلاً من أشكال الحنين إلى الماضي البعيد . ويعتقد روسو أن الانسان المتحضر حين يفقد عقله وذاته يصبح إنساناً ضائعاً وتصبح السعادة صعبة المنال بالنسبة إليه . كما يعتقد أيضاً أن الأدب يدفع الفزأ دائماً في اتجاه الأوهام والأكاذيب الاجتماعية ويطوح بهم في عالم لا علاقة له بالعقل إطلاقاً . وبذلك تسيطر قوى أخرى على حياته ويصبح هو مجرد لعبة لا حول له ولا قوة .



مارك شاغال : الشاعر في الساعة الثالثة والنصف ، ١٩٧١ .



يأكل الآباء الأبناء أو كأن يضاجع الأبناء الأمهات .
إن مناهضة الأدب باسم العقل متواصلة الى اليوم ولا يمكن
التخفيف من حدتها . غير أن سقراط رغم حدة معارضته
للأدب يبدو مزدوجاً . ذلك أننا حين نتعمق في أقواله ننتبين
احساسه بالتيابيع الوحشية للأدب وبالسحر والشعوذة وبكل
تلك العناصر التي لم تروّض عقلياً وظلت متوجهة في الانارة
الأدبية . كما أن الأدب ظل محافظاً دائماً على جوانبه الواقعية
وعلى رغبته في أن يضع الناس على قدم المساواة . فهو يجمل
الطبقات والفوارق بين الملوك والمجانين وبين الرجل والمرأة
وبين الأجناس والطبقات . ويمكننا أن نقول أن الأدب وكّد
على الورق قم المساواة والحرية والاخاء ، تلك القيم التي جعلها
سقراط ومن بعده افلاطون هدفاً للدولة المثالية . إن العقلانية

والكهنوتية والفاشية والشيوعية . وما يعيبه سقراط على
الأدب هو المحاكاة : محاكاة الصواعق والرياح والآلات الموسيقية
وحق نباح الكلاب وأصوات الطيور . وهذه المحاكاة تبدو في
نظر سقراط شبيهة بالتيار الجارف الذي يقطع الانسان من
جذوره ويطوّح به بعيداً عن موافقه . كما أنها تدمّر وحدة
الدولة المثالية القائمة على العقل والسعادة والفضيلة . ولهذا
السبب فإن سقراط يرى أن الشعر خيالي وكاذب ودونما التزام
بالضروريات الانسانية ، علاوة على أنه يحاول دائماً مخاطبة
الاحاسيس البائسة والمتوجعة النائمة في أعماق الانسان كما أنه
يدفعنا دائماً الى عالم الوم والأحلام ويقوّي رغبتنا في الضحك
والسخرية من كل شيء حتى من أنفسنا . بل أنه في أغلب
الأحيان يجبرنا على قبول حتى تلك الحالات الشاذة كأن

الضروري أن يتوفر الوضوح التام . وأول ما قام به برخت هو تنقية مسرحه - أو بالأحرى برنامجه المسرحي - من فظائع المحاكاة . وذلك بأن أخضع كل شيء للتنقية بحيث لم يعد هناك فرق بين الممثل والمؤلف والمفترج . كما أن المشاهد لا تولد الأحاسيس أو العواطف ولكنها تدفع إلى التفكير والتأمل . إن المسرح في رأي برشت يمكن أن يكون وسيلة ترفية ، ولكن هذه الترفيه خاضع لحركة الفكر حتى ولو كانت هذه الحركة خفيفة وبطيئة . وهكذا حقق برشت ما كانت ترغب في تحقيقه المثالية الافلاطونية ، أي الوحدة بين العقل والسعادة والفضيلة وذلك من خلال الوحدة بين العلم والترفيه والمسافة .

حاول برشت انطلاقاً من تقاليد الأدب التنويري الأوروبي أن يجعل من الأدب وسيلة تنويرية وبيداغوجيا اجتماعية . ولهذا يمكن اعتباره في هذا المجال ورثاً ثرياً لديدرو و ليسنج . وبإدخاله العلم في المسرح (يسمى برشت مسرحه مسرح العصر العلمي) أجهد برشت الشاعر نفسه لكي يصعد فوق كرسي التنوير . وأمام الفاشية الهاجمة بشراسة وعنف كان عمل برخت هذا شكلاً من أشكال مسؤولية الفن للدفاع عن الحرية والقيم الإنسانية . ولكن ثمن هذا الموقف كان غالياً جداً . إذ أن الفن الذي حاول أن يقوم مقام الأحزاب السياسية والتنظيمات النقابية والمؤسسات الاجتماعية والثقافية وأن يلعب دوراً بيداغوجياً كان قد أجبر في كثير من الأحيان على مغادرة ميدانه معوّضاً بذلك العلوم الاجتماعية التي كانت غائبة عن ألمانيا في ذلك الحين . وفي كثير من مسرحياته حاول برشت تفسير مفهوم الأزمة الرسالية الدائمة للجمهور البورجوازي وأيضاً تحليل الفاشية تحليلاً مادياً . ولكن محاولاته لجعل مثل هذه المواضيع القريبة من العلم شاعرية توقفت عند حدود معينة . هناك فرق بين غاليلي الذي يراقب قوانين الأجرام السماوية وبين الكاتب الذي يستخلصها . لكن برشت لا يؤمن بوجود مثل هذا الفارق . وكان يعتقد بأن العلم يمكن أن يتيح للإنسان حياة مطمئنة فوق هذه الأرض . وهو تقدير أظهرت الأيام خطأه إذ أن العلم تحول اليوم إلى غول يخيف عيود الطبيعة والحياة البشرية على حد سواء . وربما لهذا السبب أقل نجم برشت هذه الأيام وتناساه الناس في هذا الوقت الذي تشتد فيه مناهضتهم لخطر الحرب النووية وتدمير المحيط الطبيعي .

الافلاطونية لم تحقق هدفها في السيطرة التامة على الحياة وعلى الناس . وهي مثل كل المناهج العقلانية التي أعقبتها فُزت إلى قصص من ذهب لكي تحمي نفسها ولكي تحافظ على وجودها كتهنيج . وداخل هذه الدائرة - دائرة العقلانية - ليس هناك مكان للشاعر ، هذا الكائن المتنوع والمتعدد والغامض بسحره وخياله الواسع . وهو لا يطرد دوماً تقديس . وقد جاء في البوليتيكا أن الإنسان له قدرة فائقة على التكيف والمحاكاة . وإذا ما أقبل الشاعر يوماً إلى الجمهورية المثالية حاملاً آثاره الفنية فإنه سيُعامل كقديس مبهلأ ومكرماً . ولكنه إذا ما أراد الإقامة سيقع إعلامة بأن لا مكان له فيها وأنه مرفوض منها ، ثم يرسل إلى الجمهورية أخرى ، بعد أن يوضع في شعره الناردين وعلى رأسه تاج من الصفوف !

وبالنسبة لروسو الشبيه بدون كيشوت لأنه عاش في عصر غير عصره فإن أدب الناس المتعدد النزعات أوجد بدوره جمهوراً متعدد النزعات . ولهذا كان النقد الذي وجهه للفن في القرن الثامن عشر عنيفاً . بل أنه ذهب إلى حد اتهامه بأنه عنصر تخريب للحياة وتعميت للوعي . وهو نقد شبيه إلى حد كبير بالنقد الذي وجهه اليوم الشعراء والكاتب إلى الوسائل السمعية والبصرية . إن الأدب في نظر روسو يدفع الإنسان إلى الغوص في الأحاسيس السخيفة وإلى النظر إلى نفسه من خلال الآخرين . وهو يحاول أن يبين كيف أنه يتعارض مع الحياة وكيف أنه يفرغها من محتواها الحقيقي ليحولها بعد ذلك إلى مشهد مخيف . وباختصار فإن مستهلك الأدب في نظر روسو كائن فارغ وثائه وبعيد عن ذاته وعن المجتمع وعاجز عن الفعل . وهو رمز للبؤس في حياة مستهلكه .

بعد روسو بقرنين وفي فترة بدأ يأفل فيها نجم الأدب الحديث برز على المسرح رجل أراد أن يبتكر أدباً خاصاً بأبناء هذا العصر العلمي . إنه برتولد برشت الذي كتب كتاباً صغيراً حول المسرح عنوانه Kleines Organon وذلك سنة ١٩٤٨ ، أي بعد سنة من صدور "جدلية العقل" لأدورنو Adorno وهوركهايمر Horkheimer وكتاب سارتر "ما هو الأدب" . وقد وضع برتولد برشت كل قدرته الفنية في هذا الأثر وكأنه كان يريد أن يكون كلاسيكياً قبل موته . إن الكتابة لا يمكن أن توجد إلا في الشعر . ذلك أن نوم العقل وحده يسمح بظهور مثل هذه الأحاسيس الخفية . أما في المسرح فانه من



سلفاتور دالي : رأس رافائيل مشدوخ ، ۱۹۵۱ .

ولهذا لا بد من طرح السؤال التالي : «الى أي حد يمكن أن يكون الأدب عقلياً اذا ما رفض التخلي عن الحداثة ؟» . غير أن برشت نحاشي بمكر طرح مثل هذا السؤال . أما سارتر في كتابه حول الأدب والصادر في سنة ١٩٤٧ فقد حاول التوفيق بين الالتزام والحريّة وبين الضرورة الجمالية والاخلاقية وبين استقلالية الأدب ودوره في وضع معيّن . وقد قام سارتر بفصل الشعر عن النثر . فالشعر بالنسبة اليه ينتسب الى الفنون المطلقة مثله في ذلك مثل الرسم والموسيقى . أما النثر فهو الفعل المكتوب . ان الكاتب كائن يتحدث ، وهو من خلال ذلك يمكن أن يشتم أو يطالب أو يقنع أو يتوسل أو يقترح . وهذه النظرية التي طرحها سارتر تكاد تعكس تماماً صورته ككاتب . فكأنه يتحدث عن نفسه من خلالها ويبرر مواقفه وأفكاره . وهو كواحد من العالقة الكبار لا يرى ضرورة في أن يكون العقل في خدمة مذهب أو منهج أو نظام . أنه بالنسبة اليه طاقة لا تعرف التعب ودائماً وراء الأسئلة والأفكار الجديدة . وهكذا تمكن سارتر من أن يعرر نفسه من كل العوائق العقلانية التي كبلت المبدعين خلال مختلف العصور . وهو يكتب كأن دائماً يحاول أن يهرب من الاجابات النهائية وأن يكون شيئاً بنهر عظيم يتدفق باستمرار . كأنه لم يرغب في امتلاك ذلك العقل الذي كان يصفه كانط بأنه وسيلة ناجعة لاستخلاص الخاص من العام . إن التنوير حسب أدورنو وهو كتاير شمولي . وهدفه الأسى هو بلوغ المنهج الذي ينتج عنه كل شيء . غير أن سارتر رفض كل المناهج ونادى بضرورة أن يكون الأدب مفتوحاً أو لا يكون . وربما لهذا السبب ولأسباب أخرى بطبيعة الحال لم يتردد في أن ينيق نفسه أكثر من مرة وأن ينقد أفكاره بنفس الشدة التي نقد بها

أفكار الآخرين . إضافة الى كل ذلك كان سارتر يرى أن الأدب اذا ما تحول الى بوق دعاية والى شكل من أشكال الترفيه السطحي والساذج فان المجتمع بأسره سيسقط في الحضيض ويفرق في الوحل .

بعد كل هذا ماذا يمكن القول عن أدب اليوم ؟

اننا نستطيع اذا ما تأملنا الانتاج الأدبي الذي يطالعا هذه الأيام أن نتلمس رد فعل واع وغير واع لما يمكن أن نسميه بالبؤس التنويري يعكس أزمة حادة هي ثمرة التقدم العلمي والتقنية . وقد بدأت هذه الأزمة في الستينات أي عندما بدأ يظهر أدب يمكن أن نسميه بالأدب الأخضر . وهو أدب مناهض لكل نقد عقلاني ويتمحور حول التجربة الذاتية للكاتب أو حول مفاهيم مثل «الاصالة» و «الوطن» و «المرأة» وهو خليط من العواطف الحميمة والانفعالات والدموع والهواجس (أعمال بيتر هاندكه Peter Handke وبوتو شتراوس Botho Strauss على سبيل المثال) .

هل معنى ذلك أنه لم يعد ضرورياً أن نطرح السؤال التالي : ما معنى أن يكون الأدب عقلياً وما معنى أن يكون لا عقلياً ؟ ! وهل معنى ذلك أن الأدب قادر من جديد أن يثبت وجوده في الواقع وأن ينتصر على أولئك الذين حاولوا تدميره باسم العلم والتكنولوجيا الحديثة وذهبوا الى حد إعلان موته .

ملاحظة : هذا النص تلخيص لمحاضرات ألقيت خلال هذا العام بمناسبة ندوة قدمت فيها مجموعة بحوث حول عدد من المشاكل المتعلقة بالأدب والفن .

هل تكون الرؤيا مصدراً للأمل ؟

ولقد كان رقم اورويل Orwell السحري ١٩٨٤ تمثيلاً لهذه الرؤيا المتشائمة . ولم يحدث - مثلما هو الحال الآن - أن انتعشت اليوطوبيا والرومانسية المتشائمة ، وفلسفة اليأس ، والتخيلات المفعمة بالأحاسيس الكثيبة عن قرب نهاية البشرية . وكل هذا خلق نوعاً من الشعور يشابه كسوف الشمس في نفوس الناس ووعيمهم .

والآن نكتظ المكتبات الألمانية بمختلف الكتب حول النهاية المرتقبة للبشرية . كما أن أفلاماً مثل «الرؤيا الآن» و«الكارثة» و«المهوى النووي» و«العاب الحرب» و«اليوم التالي بعد نشوب الحرب النووية» تشهد إقبالاً جماهيرياً لا مثيل له .

ولا تنطلق التخيلات عن زوال العالم من التفكير في احتال نشوب حرب نووية لحسب ، بل وأيضاً من التفكير في اشتداد الأزمات الاجتماعية والبيئية وفي الكوارث الحقيقية والخيالية ، وفي الأزمات السياسية والتهديدات العسكرية . وكذلك من التفكير في انقراض الغابات وأنواع من الحيوانات والنباتات ، وفي الانفجار السكاني وفي كوارث المجاعات في العالم الثالث ، وفي البطالة المتزايدة ، وفي تفاقم الارهاب ، وفي اشتداد الرقابة الشاملة للدولة .

في ملاحظاته الهامشية حول زوال العالم كتب هانس ماجنوس إنتسنسبرجر Hans Magnus Enzensberger ساخراً من هذه الظاهرة : «إن تخيلاتنا حول سفر الرؤيا أو زوال العالم تصاحبنا باستمرار في حقائبنا الأيديولوجية الصغيرة . إنها شبيهة بمهيج للشبق . وهي موجودة في كل مكان . ولكنها ليست حقيقية . وكأنها حقيقة أخرى أو صورة نحاول رسمها أنهاننا . إنها الانتاج المتواصل لخيالنا . إنها الكارثة في

لو عاش بلوخ الى حد سنة ١٩٨٥ ، لكان بلغ من العمر مائة عام . وقد احتفلت مدينة لودفيجسهاfen التي شهدت مولد الفيلسوف الكبير بهذه المناسبة ، وتظمت معرضاً ضخماً تحت عنوان «الرؤيا : مصدر للأمل» . وجميع مواضيع المعرض استلهمت أساساً من أفكار هذا الفيلسوف الذي يعتبر دون شك واحداً من أعظم فلاسفة عصرنا . وفي سيطرة أساساً من مؤلفاته الرئيسية الثلاثة : «روح الطوباوية» ، و«مبدأ الأمل» و«ميراث عصرنا» . وقد اهتم بلوخ اهتماماً بالغاً بفكرة الرؤيا . ومعلوم أن فكرة «نهاية العالم» وأفكاراً أخرى تتصل بالدمار الشامل ويتخاوف الناس من نهاية مفاجئة للحياة سيطرت في المرحلة الأخيرة على الأدب والفن والفلسفة .

والمرض المذكور أبرز فكرة الرؤيا منذ القرون الوسطى ، مروراً بعصر الإصلاح (رسم البرخت دورر) وجم عصر النهضة والعصر الباروكي ، وأخيراً القرن التاسع عشر والقرن العشرين . ومعلوم أن فن الرؤيا لم يعد ابتداء من عصر النهضة فقط ثوراتياً . وكانت أغلب اللوحات تنتمي الى القرن العشرين . والسبب أن فكرة «الرؤيا» أصبحت أكثر انتشاراً وسيطرة على أذهان البشر بسبب الفواجع التي ألت بها خلال الحربين العالميتين ، وأيضاً بسبب تقام أخطار اندلاع حرب نووية . وربما لهذا السبب أيضاً أصبح هذا الموضوع - موضوع الرؤيا - يحظى باهتمام كبير لا من جانب الفلاسفة والعلماء والفنانين ، بل وأيضاً باهتمام عامة الناس . وقد كان المرض فن مدينة قديمية لودفيجسهاfen لابنها العظم الذي فهم عصرنا فيها جيداً ، وتتمنى في دراسة فواجهه وآلانه .

وفي هذا الصدد نقدم نقلاً لميخائيل شنايدر يتحدث فيه عن فكرة الرؤيا في عصرنا وثائيرها على الأدب والفن عموماً .

ثمة شبح يحول في أوروبا ويسمى شبح سفر الرؤيا . وهو يترعب بالبشرية ويغيث خيالها بالصور الفاجعة عن قرب نهاية ودمار العالم .

وبعد أن كانت هذه التصورات الخيالية حول هذا الشبح تتساقب في أثناء الليل في العهود القديمة ، أصبحت اليوم تتسرب الى نفوسنا في وضوح الهار ، متخذة أشكالاً وصوراً جديدة : نبوءات دينية ، تكهنات وإقتراعات علمية ، رؤى فنية ، أساطير مبتذلة أو مجرد خرافات .

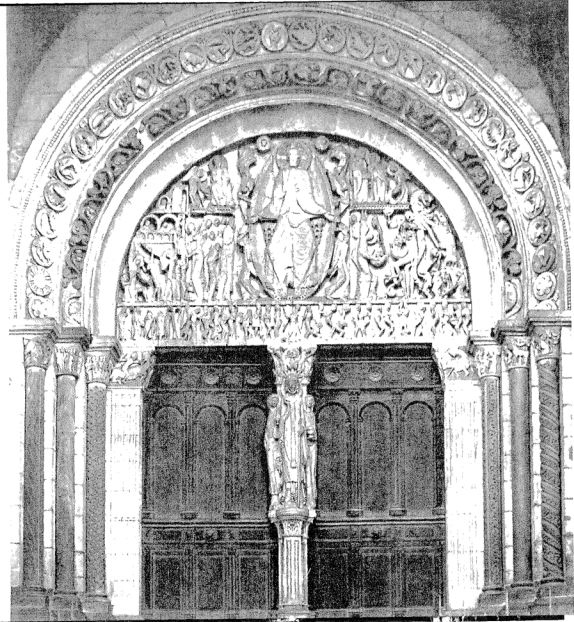
لقد كثر في السنين الأخيرة استعمال كلمة «نهاية» . والكلمة يتحدث عن «نهاية التنوير» وعن «نهاية الأدب» وعن «نهاية الحداثة» وعن «نهاية افو الاقتصادي» ، وأخيراً انتشرت الرؤيا الفاجعة عن «نهاية البشرية» .

وكل هذه التخييلات عن زوال العالم ما هي الا يوطوبيا سلبية .

وفي كتابه الخوف من القوضى الذي اكتشفت أهميته أخيراً ، كتب يواخيم شوماخر Joachim Schumacher تلميذ الفيلسوف إرنست بلوخ Ernst Bloch أن الانسان في مختلف العصور ، أراد دائماً أن يُقنع نفسه بأن العصر الذي يعيش فيه ، لا يمثل مرحلة انتقال أو تحوّل يفضي الى عصر جديد ، بل هو

رؤوسنا . انها كل ذلك وأكثر من ذلك . انها واحدة من أقدم التخييلات التي لازمت الجنس البشري .

وهذه الظاهرة التي تأتي وتختفي من حين لآخر ، لها تاريخ متقلب ارتبط دائماً ومباشرة بالتغيرات المادية التي لازمت تاريخ البشرية . ذلك أن الأفكار حول نهاية العالم قد رافقت البيوطوبيا دائماً وأبداً وكأنها ظلها أو وجهها الآخر . دون كوارث ليس هناك أبدية . ودون رؤيا ليس هناك فردوس .



يوم الحساب : البوابة الغربية في كاتدرائية أوتون ، ١١٣٠ .



مارك شاغال : نبوة تدمير بابل .



مارك شاغال : نبوة تدمير القدس .

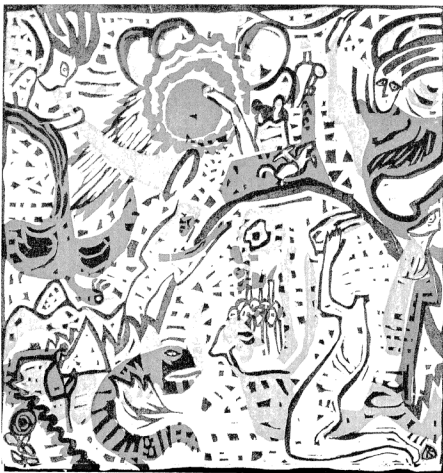
في هذا الفراغ العقائدي والديني ، برزت المسيحية كديانة انسانية ، جاءت لتواسي الانسان بصورتها عن الآخرة وعن الخلود ، وأعدت للوعي الانساني في مستهل القرون الوسطى ، السكينة والهدوء ، وكل ما كانت فقدته بسبب تلك الصراعات التي نشبت بين خلفاء الاسكندر الأكبر قبل ٣٠٠ عام من ميلاد المسيح . ولكن المسيحية - رغم ذلك - لم تشذ عن القاعدة واستشفت هي أيضاً النهاية المرتقبة للبشرية مكن خلال الحروب والحروب الأهلية ، والطاعون الأسود ، وكل تلك الكوارث التي اعتبرتها عقاباً من الله بسبب شرور ارتكبت فوق الأرض .

ولقد سبقت حركة التنوير في أوروبا والثورة العلمية التي رافقتها وتطورت بعدها ، أزمة عميقة في إيمان ووعي الناس . من ذلك ان الحروب الدينية وحرب الثلاثين سنة (١٦١٨ - ١٦٤٨) بغرسانها المجسدة للرؤسا ، والتي دمّرت

نهاية المطاف ، بعده لن يبقى أثر للانسان أو العالم . وقد اعتقد الانسان أيضاً أن التناقضات والازمات الاجتماعية والفكرية في عصره ليست سوى عقاباً من الله . ونحن حين نتأمل في تاريخ العالم نكتشف أن ظاهرة الخوف من الزوال والفناء لازمت البشرية منذ ظهور أول مخطوط . وتكاد كل أساطير سفر التكوين بغض النظر عن منبعها الديني أو الثقافي تتضمن في أعماقها إنكار واضح لذاتها . وكل التخيلات الفنتازية عبر التاريخ مهما اختلفت أشكالها والأقنعة التي تخفي وراءها كانت دائماً تمثل تعبيراً عن تفتّرات اجتماعية حاسمة ، راهنة أو مستقبلية . وقد خلقت هذه التفتّرات التاريخية شعوراً بالخوف من المجهول ، وساعدت على بروز التخيلات بقرب زوال العالم . وقبل أن يحتل الرومانيون الامبراطورية الاغريقية ، تصور الاغريق أن انهيار عقيدة تعدد الآلهة في العصور القديمة ليس سوى النهاية الشاملة للعالم . وكان العصر الذي أعقب العصر الاغريقي ، مفعماً بالخوف من الموت وبشعور من الدمار والتشاؤم العميق .



ادوارد مونك : الحرف .
المرخة



فاسيلي كاندينسكي : البعث الكبير .

وقد انخرع عن هذا الفشل الذريع تفافم الشعور باليأس لدى الإنسان المعاصر واشتداد تلهفه للخلاص من الحضارة بصفة عامة ! وقد عمد الكثير من المنبئين بزوال العالم إرجاع التهديدات المختلفة التي تواجه الإنسان ، لا الى حقائق واقعية وموضوعية ، مثل الاضطرابات السياسية ، والعسكرية ، والبيئية ، بل الى الانثروبولوجية ، والميتافيزيولوجيا ، وإلى تجريدات فلسفية أخرى . وهم يريدون أن يثبتوا من خلال ذلك أن الإنسان هو مصدر كل شيء ، وما يواجهه اليوم من رعب شيء متأصل في طبعه .

ومثل هذه الأفكار تروجها الآن جماعات تختفي وراء ما يسمى

باللو بيكاسو : الفرنكا ، ١٩٣٧ .

«الامبراطورية الرومانية المقدسة للام الألمانية» ، اعتبرت إهياراً فاجعاً لا للنظام السائد فحسب ، بل وللعالم ككل . وقد أثار اندلاع الثورة البورجوازية في إنجلترا وفرنسا ، وبالأخص لدى الاشراف والفلاسفة الخلويعين ، التخيلات الفئانية . وفي الحقيقة ، يمكن أن نقول بأن كل الطبقات التي حكمت ، لم تترك الركب إلا بعد أن قامت بتلك الحركة العاطفية ، والمثيرة للشفقة ، وكأنها تريد أن تقول أن سقوطها إشارة بنهاية الحضارة الاوربية ، بل وبزوال العالم نهائياً ! وقد كان كتاب أوزوالد شبينجلر **تدهور الحضارة الغربية** نوعاً من التخيل الجماعي للآثر ، إذ أنه يجسد هذه الفئانية . وباختصار يمكن أن نقول : ان كل حركة في اتجاه المستقبل ، تعتبر من طرف الطبقة الحاكمة ، دعوة الى القوضي وإلى التدمير التام ! وعند انهيار الرايخ الثالث ، راجت التخيلات الفئانية . وخلال فترة إعادة بناء ألمانيا وحتى الخمسينات ، سيطر التشاؤم على الناس وداهمت الكوابيس أذهانهم . ويبدو ذلك واضحاً في المؤلفات الأدبية التي صدرت عقب الحرب العالمية الثانية .

أضافة الى ذلك ، تسببت الفاجعة التي المت بهيروشيما وناجازاكي من جراء القنبلة الذرية في إحداث هلع كبير من احتال فناء البشرية . وتثبتت الحركة المعارضة للتسلح النووي في الخمسينات بأن الفرع الذي أصاب الإنسان بسبب التسلح النووي كان شديداً ، وأن الخوف من اندلاع حرب عالمية ثالثة أصبح ملازماً له في حياته اليومية . وكل تلك المخاوف السوداء التي تناساها الناس أثناء فترة الرخاء والمعجزة الاقتصادية العالمية ، تفاقمت من جديد خاصة بعد أن بلغ التسلح النووي ذروته في السبعينات .

وتوضح احدي الدراسات العلمية التي نشرت مؤخراً أن المخاوف والتصورات الفئانية المنتشرة الآن انتشاراً مريعاً ، ليست سوى نتيجة مباشرة لفقدان الناس الثقة في القيم السائدة : الدولة ، العدالة الاجتماعية ، التكنولوجيا الخ . وهو ما كان سماً نيشته من قبل بانقلاب القيم في جميع مجالات الحياة . وبناء على ذلك ، فإن كل التصورات الفئانية الراجية اليوم ، يمكن وصفها بأنها أحلام بالخلاص انقلبت فجأة لتصبح يوطوبيا سلبية ، ذلك أن الحضارتين ، المسيحية والشيعية لم تتمكنا من تحقيق ما وعدتا به الناس من محبة وخير ومساواة وعدالة .



قبل ، حتى نتمكن من مواجهة التهديد النووي . هذا التهديد الذي لا يمكن مقارنة خطره بخطر الانقلابات الاجتماعية والسياسية السابقة ، لا بد أن يحفز هممتنا ، وأن يتقوي فينا الرغبة في المحافظة على الحياة البشرية . وهناك العديد من الظواهر تشير الى أن هناك تغيراً في الوعي بدأ في العشر سنوات الأخيرة ، وهو شبيه بذلك الذي رافق عصر النهضة . وحده هذا الوعي الجديد يمكن أن يعلن عن ميلاد إنسانية جديدة وفيه في ثناياه يكن «مبدأ الأمل» !

(تلخيص لنص طويل بنسب العنوان) .

بالفلسفة الجديدة . ولقد استعمل جورج لوكاتش George Lukács مرة تعبيراً ظريفاً هو : «فندق الهاوية الكبير» . ويبدو أن هذا التعبير يجسد بحق وضعية هؤلاء «الفلاسفة» الجالسين في الصالونات الفخمة يلتذون بالحديث عن الشرور وعن الضغينة والحقد وإعداد القداسات الجنائزية الصارخة . وهدمهم من خلال ذلك قبر كل البوطبيبات الانسانية والاجتماعية ، وإلقاء الانسان في مهمه قفر .

ان التهديدات التي تجابه حضارة عالم اليوم ، تحتم علينا تغيير أساليبنا ومناهجنا الفكرية بصفة جذرية وكالم نفعل ذلك من







تربيتي العلمية

والوجدان . وأذكر أنني حين قرأت «من الأعماق» تأليف أوسكار وايلد أعجبت بسحره . حتى إنني عندما بلغت الصفحة الأخيرة عدت فوراً إلى الصفحة الأولى أقرؤه ثانية كأنني أستعيد لحناً جليلاً وأنغاماً رائعة . ولكنه لم يترك في رأسي مركبات ذهنية كذلك التي تركها «أصل الأنواع» لداروين . فقد غيّرني داروين . أما أوسكار وايلد وجون روسكين وكارليل من الكتاب الذاتيين فقد نسيتهم ، لأنهم جميعاً بعيدون عن الحقائق الموضوعية . وحين أقرؤهم الآن أشعر أنهم يخطبون أو يصرخون أو يتفحصون . فأجد اللذة العابرة في أسلوبهم ، ولكني أحس أنهم ليسوا مفكرين أساسيين . والمفكر الأساسي عندي هو داروين الذي يستحدث في اعتدال وحذر . وأسلوبه هو الأسلوب الرصين . وأقرب الناس إليّ في هذا الأسلوب هو برنارد شو . وقد سبق أن قلت إن أحسن ما نقيس به الكاتب أن تعرف مقدار ما تركه لنا من المركبات الذهنية ، لأنه على قدر هذه المركبات يكون تفكيره محورياً أو بديرياً ، أي أننا لا نأخذ منه المعرفة الجامدة فقط ، بل نأخذ المعرفة النامية التي تنمو وتتسع في الخلايا الرمامية من الدماغ فتتركنا ونحن نفكر ونشتبك في اشتباكات جديدة لا تفتأ تنبها إلى توسع وتعمق فإني أع . ومنذ ١٩٠٨ حين قرأت «أصل الأنواع» وأنا في هذا التوسع والتمتع . فقد درست البيولوجية والجيولوجية ، بل سيكولوجية فرويد ، بحافز من إعجاب داروين . كما أن داروين كان السبيل إلى التعرف إلى هربرت سبنسر . وكان داروين يصفه بأنه «فيلسوف التطور» .

والحق أن سبنسر هو المسئول عن تعميق هذه النظرية ونقلها إلى المجتمع ، ولا عبرة بأنه ارتكب أخطاء كثيرة في التفاصيل ، فإن الأخطاء أحياناً قد تكون مثيرة مثل الاصابات . لأنها تفتح كوة على ناحية لم تكن مفتوحة من قبل . فإذا كان الناظر إليها

لما تركت مصر إلى فرنسا في سنة ١٩٠٧ كان «التطور» من مركباتي الذهنية البارزة ، بل المركب الأول . حتى إنني حين هبطت باريس جمعت طائفة من الكتب التي تعالج هذا الموضوع ، ولكني لم أستطع فهمها وقتئذ ، لأنني أسأت الاختيار فلم أقتن الكتب الإبتدائية أو بالأحرى لم أجدها . فلما قصدت إلى لندن وجدت العشرات من هذه الكتب الإبتدائية . وكانت جمعية «العقلين» تنشرها وتبيعها بأثمان التراب ، بسعر ٢٥ ملية لكل كتاب . فأكبت عليها في دراسة مثيرة ، مع استخراج الخلاصات وكتابة التعليقات . وقرأت كتاب داروين «أصل الأنواع» . وليس في هذا الكتاب شيء يشق على الفهم ، ولكنه يحتاج إلى التأمل الكثير . وداروين بعيد كل البعد عن التعبير المسرحي ، إذ هو متواضع معتدل يكتب في حذر كأنه يخشى أن يؤمن القارئ بكل ما يقول . وهو الضد لنيشه في الأسلوب . فإن نيشه ناوي ساوي ، أما داروين فأرضي طبعي . وأسلوب نيشه عاطفي ذاتي حتى حين يهتدي إلى الحقائق الموضوعية . أما داروين فيكتب عن وجدان وتعقل ، حتى لتحس أنه ينفض عن نفسه عاطفته وذاتيه كما ينفض أحداً الغبار عن مخصه .

وليس شك أن حيي لداروين ، وتحيزي لنظرية التطور ، منذ نشأتي الثقافية ، قد ترك أثرها في أسلوب الكتابي . فقد قيل إن الأسلوب يدل على الجانب الأخلاقي للمؤلف ، بل يكشف عنه . أي يدل على الاتجاه التفكيرى وإيثار بعض القيم على بعض . وأنا أؤثر أسلوب داروين : أسلوب المنطق الصارم ، والحذر ، والاعتدال ، على أي أسلوب آخر يوصف بأنه «أدبي» . وكثيراً ما وصفي الكتابي في مصر بأنني لست «أديباً» لأنهم لا يجدون عندي تلك الزخارف والتزاويق المألوفة في غيري من الكتاب . ومع ذلك فلائي لا أنكر سحر الأسلوب العاطفي . ولكني إذا كنت ألتذ السحر أحياناً ، وأستمتع بما فيه من مهارة ، فلائي أؤثر عليه أسلوب التعقل

أخطأ الرؤية ، فإن فضله لا يزال عظيماً لأنه فتح الكوة . وهذا هو ما أراه في كثير من المفكرين مثل فرويد وسبنسر ، بل وداروين نفسه . فقد نهى فرويد في خطته عن « مركب أوديب » كما نهى سبنسر في خطته عن سوء النظام الاشتراكي ، وكذلك نهى داروين في خطته عن تنازع البقاء . وكل هذه الأخطاء كانت كوات جعلتنا نفكر ونبحث ، لأنها فتحت لنا آفاقاً جديدة انتقلنا بها من الميدان البيولوجي الى ميدانية الاجتماع والدين والاقتصاد .

ومن الكتاب البذريين الأساسيين الذين تأثرت بهم ، وما زالت المركبات الذهنية التي خلفوها في خلاياي الرمادية قائمة بل نامية ، كارل ماركس . فقد وصلت اليه عن استغراض ضده من كتاب «الانفرادية» الذين يقولون بالمباراة الاقتصادية مثل هربرت سبنسر ، وخرجت منه على احترام له واحترار لهربرت سبنسر وأمثاله . ولكن هذا الاحترار ، في هذه النقطة المعينة ، لم ينقص إكباري للقوة التفكيرية عند سبنسر . والحق أنها قوة عظيمة جداً . فإس نظرتة شاملة ، وهو فيلسوف أكثر مما هو عالم . ولكنه فيلسوف بعيد عن الغيبيات . وقد احترف هذا الرجل التفكير احتراماً ، حتى ليسألم الانسان حين يقرؤه ويكاد يسأل : لماذا يلهث ويعرق ؟ . ألا يفكر في إجازة يستريح فيها ؟

والحق أنه لم يفكر في إجازة . وقد أصيب لهذا السبب بانهايار عقلي تألم منه نحو سنتين . وحتى بعد ذلك كان أحياناً يطلب من ضيوفه ألا يتكلموا ، بل أن يبقوا في ضيافته أو رفقته صامتين .

وفي هذه السنين كدنا ننسى هربرت سبنسر . ولكن كارل ماركس يزداد بمرور السنين قوة بل حياة . فإن نظرياته تحيا في كل مكان في العالم ، والأزمة العالمية الحاضرة هي أزمة الصراع المنتظر ، أو الوفاق المحتمل ، بين الماركسيين دعاة الإنتاج التعاوني وبين الديمقراطيين دعاة المبادأة الاقتصادية . ولذلك لا يمكن أحداً أن يصف نفسه بأنه مثقف إذا كان يجهل الماركسية ، ولو كان يكرهها . لأن الأزمة العالمية هي في صميمها أزمة ماركسية .

وقيمة الماركسية في فهم السياسة العالمية ، والتطورات الاجتماعية والاقتصادية الحاضرة ، كبيرة جداً . ولكن لها قيمة

أخرى في فهم التطورات التاريخية . ولتعمق في دراسة ماركس لا يتالك من الشعور بأنه هو ، لا فرويد ، الأساس الصحيح للفهم السيكلوجي . فإن ماركس أثبت أن العواطف الاجتماعية ، أي التي نكتسبها من المجتمع ، أكبر قيمة وأبعث على التغيير والتطور وأثبت في كياننا ما نسميه العواطف الطبيعية . ولذلك لا يقتصر فضل ماركس على أنه جعل الاقتصاد علماً ، لأن الحقيقة أنه جعل كذلك الأخلاق والاجتماع والسيكلوجية علوماً . ولا يستطيع أحد أن يفهم هذه الثلاثة على حقيقتها ، الفهم الموضوعي ، إلا إذا كان ماركسياً .

داروين وماركس ، كلاهما قد غرس في رأسي مركبات ذهنية . وجعلني أنظر الى الدنيا والى الأحياء في استغراض علمي وتحليل اقتصادي وسيكلوجي .

وعندما أشتبطن إحساسي الديني أجد أن بؤرة هذا الاحساس هو «التطور» . وهذا الاحساس الديني هو فهم وممارسة . فإني أقفم أننا وجميع الأحياء أسرة واحدة بما في ذلك النبات ، وأن الخلية الأولى التي نبض بها طين السواحل قبل نحو ٧٠٠ مليون سنة هي عنصرنا الأول . وأننا ما زلنا ننبض وننتعير في تجارب لا تنتقطع ، وأن سنتنا هي لذلك سنة التغير ، وجرمتنا هي لذلك جريمة المجد . ونحن حين نجد بما نكفر بسنة الكون مادة وحياة ، ولكون إلى جنب هذا الفهم الديني يجب أن «نمارس» ممارسة دينية احترام الحياة أياً كانت ، والتعرف على أشكالها ، وحمايتها من الأيمن المستترين بالطبيعة . هذه الطبيعة التي نكتسب في ذهني قداسة كلما فكرت في غابات إفريقيا أو الهند وما تحوي من تحف الحياة . أو كلما فكرت في غياهب المحيط الهادي أو الأطلسي أو المحيطين القطبيين وما بهما من أحياء يحاول التجاريون ، في غير شرف ، أن يبيدوها بالإلحاح عليها في الصيد .

وكذلك لا أقرأ الجريدة اليومية ، ولا أسمع عن خبر سياسي أو مشروع لقانون جديد ، إلا وأنظر إليه بالاستغراض الماركسي من حيث دلالاته على التوازنات المخفية التي دفعت اليه . في حين أن الذي يجهل الماركسية يتطوّر ويتخطى في تقديرات «مخفية» للمثنيين السياسيين أو الحزبيين . مع أن هؤلاء ليسوا سوى أدوات تأخذ مكانها في دورة الآلة الكبرى ، في حركة

يجمده الثاني الذي يحبس أن الحوادث التافهة والخطيرة ،
والاتجاهات السياسية ، والتطور والثورة ، والحب والسلام ،
كلها أشياء تجري جزافاً .

ويأتي فرويد ، بعد داروين وماركس ، في إيجاد المركبات
الذهنية التي علت في توسعي وتعمقي . وعندي أن «مركب
أوديب» الذي يعد محور السيكولوجية الفرويدية هو خطأ ،
ولكنه خطأ منير . لأنه ننينا ، كأنه دسيسة علمية نحرنا الى
البحث والتنقيب في كهوف النفس المظلمة ، الى قيمة السنين
الأولى من أيام الطفولة في تكوين الشخصية . وقد وصفت
أقوال فرويد بحق بأنها «سيكولوجية الأعماق» . وهي كذلك ،
وإن كنا نختلف كثيراً عما نجد في هذه الأعماق . ولولا فرويد لما
كان هذا الجيش الذي يتألف من آلاف العلميين الذين يبحثون
النفس البشرية في جميع الأقطار المتمددة . وقد جمعت بين
فرويد وماركس وخرجت منهما بأزكى الثروات . بل طلنت
الى ان ماركس هو السيكولوجي الأساسي لأنه يجعل وجدان
الفرد ثمرة المجتمع .

وعبارة «التحليل النفسي» من العبارات التي تُعزى الى
فرويد . وهي «اللافتة» لجميع أنواع العلاج السيكولوجي .
وليس ثمة شك في قيمة التحليل . ولكي أحس أن «التأليف
النفسي» أعم وأنفع من التحليل ، وأنه إلى الآن مهمل لأن
السيكولوجيين مقيدون بفرويد .

وفي حياتنا المعاصرة لا يستطيع أحد أن يهمل التفكير العلمي
لأن الحضارة الصناعية السائدة هي حضارة العلم . وقد دأبت
في دراسة العلوم التي تدور حول التطور أو الاقتصاد أو
السيكولوجية أكثر من ثلاثين أو أربعين سنة ، ولذلك أستطيع
أن أتناول كتاباً عن الهرمونات ، أي مفرزات الغدد الصماء ، أو
كتاباً عن الايكولوجية ، أي علاقة الحي بالبيئة ، أو كتاباً عن
مشكلات الوراثة ، أو كتاباً عن جنون الشيزوفرينيا ، فأقرأها
جميعاً في رغبة ولا أجد ذلك الصدود الذي يجده غيري من لم
يعنوا بالعلوم .

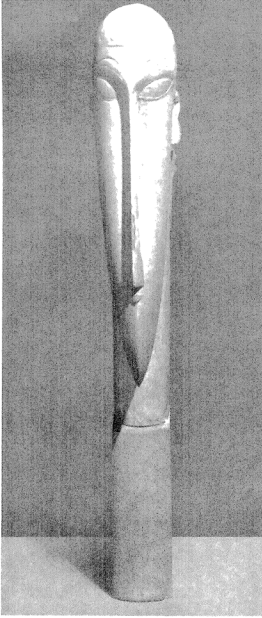
وكل هذه العلوم هي دراسية المستقلة ، لأن ما حضرته من
محاضرات في لندن لا يؤبه به . وما أسف عليه أحياناً أنني لم
أجد المرشد ، حوالي ١٩٠٧ ، الذي كان يستطيع أن يعين لي
منهجاً دراسياً في العلوم . ولكني ، بعد التفكير ، اسائل : هل



ميكيل أنجلو : لورنزو ميديشي ، الفكر .
(كنيسة ضريح عائلة الديدشي في فلورنس) .

المجتمع الاقتصادي . ولذلك أيضاً أصبحت فكرة «البطل» في
التاريخ من المفكرات التي كانت تتقهقر في وجداني كلها
تقدمت في التحليل الاقتصادي . ولكن يجب أن أعترف أنها
مع تقهقرها لم تنمح ، وأنه لا يزال للشخصية قيمتها في تفكيري .

وفرق عظيم ، بل عظيم جداً ، بين شخص قد قرأ ماركس
ودرس التفسير الاقتصادي للتاريخ ، وبين آخر يجمله . لأن
الأول ، الذي امتاز وجدانه بالحاسة التاريخية التي اكتسبها من
ماركس يجد في أخبار الجريدة اليومية من المعنى والمغزى ما لا



مودغلاني : رأس ١٩١١/١٩١٣ ، لندن .

كان يكون أفضل لي لو أني كنت قد انغمست في دراسة علمية تجريبية معينة ؟

إن المتخصصة في الجيولوجية أو البيولوجية أو الأيكولوجية قلما يفكر في دراسة أفلاطون أو قراءة الجاحظ أو دراسة الحضارة الفرعونية . ولكني أنا بالاتجاه الموسوعي الذي اتجهته قد درست هذه العلوم ، في غير تخصص ، ولكن مع الإستطلاع الدائم لغيرها من الثقافة ، حتى أني أقدر ، مثلاً ، عدد المؤلفات التي قرأتها عن حضارة الفراعنة بما لا يقل عن أربعين أو خمسين كتاباً . ولم أترك كلمة مطبوعة للجاحظ لم أقرأها . وكذلك أستطيع أن أؤلف كتاباً عن غوته أو عن الإصلاح الزراعي في مصر أو المسألة الهندية بأيسر غناء . ولذلك يرى القارئ ، أني درست ، لا للثقافة ، بل للحياة . وقد جعلتني دراساتي العملية على أن ألتفت كثيراً الى المراحل البعيدة التي قطعها العلوم المادية ، كالطب والهندسة والكيمياء والميكانيك والطبيعات ، مع تأخر العلوم الاجتماعية ، التي حال دون التفكير الحر فيها وتغيير قواعدها تقاليد وشعائر وسنن وقوانين تعمل كلها لتجميد تطورنا الاجتماعي . فالاجتماع ، باعتباره علماً ، يعيش على مستوى التفكير في ١٦٠٠ أو ١٧٠٠ ميلادية . بل هو في أقطار آسيا وأفريقيا يعيش على مستوى سنة ١٠٠٠ للميلاد . في حين أن الكيمياء أو الطب يسبقانه بنحو ٢٠٠ أو ٤٠٠ سنة . ولذلك نحن لا نعيش المعيشة العلمية في بيوتنا ، ولا يسود حكومتنا النظام العلمي . ولو أنه كانت هناك تقاليد وشعائر وسنن وقوانين للكيمياء مثلاً ، كاللمجتمع ، لبقى هذا العلم على مستواه حين كان كل هم الكيماوي أن يحيل الرصاص الى ذهب . كما أننا لو استطعنا التخلص من تقاليدنا ، ومن الاستغراضات التي تخدم بعض الهيئات والطبقات ، لكان في مقدورنا أن نرتفع بالاجتماع الى مستوى العلوم التجريبية المادية .

ولهذا أيضاً نجد أن الطالب الذي يدرس الطب نقول له في صراحة إن الذباب ينقل عدوى الرمد او الدوسنطاريا ، أو أن لحم البقر الذي أصيب بالدرن تنتقل عدواه الى آكله من البشر ، ولكننا لا نقول هؤلاء التلاميذ أو الطلبة إن الأجور

المنخفضة التي يحصل عليها العمال في مصر تقضي بينهم الجرب والعمرى والموت . لأننا نخشى هنا الاستغراضات الامتيازية والاحتكارية والاقتصادية . ونخشى أن نصرح للفلاحين بأن

كثيراً من الغيبيات التي يؤمنون بها خرافية . ذات يوم في ١٩١٨ كنت قاعداً في الريف الى قناة صغيرة في ظل شجرة وإلى جنبي فلاح قد بلغ الثمانين ، وكنت أتأمل يركات الضفادع وهي تسبح . فسألت الشيخ عنها فأتضح لي أنه لا يعرف أنها ضفادع صغيرة . ثم تشعب الحديث الى النبات فقال : «إن لكل نبتة من هذه الأعشاب التي تنمو على شطوط القنوات ملكاً يحرسها» . ولما نهضت أخذت أفكر في هذه الرواسب الثقافية التي انحسرت النسا عن الفراغنة والكلدانيين والبابليين ، وجعلتنا نعيش في غيبيات تحملنا على النظر الخطيء لحقائق هذا العالم وتباعده بيننا وبين النظر العلمي الموضوعي . وقلت في نفسي : هذا الرجل غيبي ، يؤمن بأن العالم حافل بالأرواح التي تحرس الناس والحيوان والنبات . إذن هو من خصوم داروين .

ولكن هذا الفلاح المسن يمثل في سذاجته المركزة جهل الرجل العادي والمرأة العادية . وكلاهما يعيش بذهنه على روايب قديمة من العقائد . وحتى إن ذكره «القرينة» عند الفراغنة ، لا تزال حية في أيا منا . أجل ! لقد ذكرت الآن . فقد كنت طفلاً لم أتجاوز السابعة أو السادسة . وكنت قد غضبت وصرخت ورفضت ، وأنا في العشاء . فقالت لي أمي تخيفني : «دلو وقت أختك تزعل منك وتضربك» .

وكانت تعني بأختي هذه «قرينة» الفراغنة . وقصدت الى الفراش ونمت بلا عشاء . وإذاني أحلم أن فتاة قد حضرت وهي تحمل سوطاً ، ترفعه في الهواء كي تتحفز لضربي ، فصرخت في التوهم . وأقبلت إلي أمي في فرع فأيقظتني ، وحضنتني ، وجاءتني بكوب من الماء شربت منه جرعة . ثم أخبرتها عن الحلم ، فأخذت تقبلي وهي تبكي : «حقك علي يا ابني . أنا كنت بضحك . مفيش أخت . مفيش أخت» .

ولكن مجتمعنا لا يزال في أسر هذه القرينة أو ما يشابهها من العقائد التي تتخذ أحياناً أسلوب البحث العلمي . كما نرى مثلاً في أولئك الذين يزعمون أنهم يستجلبون الأرواح فتنتقر على المائدة وتحدث عن العالم الثاني . وهذه العقائد تعيش كأنها كلبوس للمجتمع ، تعمل على تجميده وتخوفه حتى لا يتطور . ودعاة الروح هؤلاء لا يختلفون عن تلك الأم الساذجة التي تقول عند يعثر طفلها : «وقعت على أختك

أحسن منك» تدح الأخت وتسترضيها حتى لا تنصيب طفلها بأذى .

وهذه القرينة ، أو هذه الأخت التي أفزعني في نومي ، وهذه الملائكة التي تحرس النباتات عند ذلك الفلاح المسن ، هي ضباب العقل الذي كان يجب أن يبقه العلم . وقد انتشع أو كاد في أمريكا وأوروبا . ولكنه لا يزال يحجم علينا ، لأن الثقافة العلمية لا تزال بعيدة عنا لم تنفص هواءها الصافي .

وهذه الثقافة العلمية هي ما أفنأ أرجو أن أجعلها أسلوب في الحياة الشخصية والإجتماعية . ولكني لم أخطيء قط ذلك الخطأ المؤلف بأن أجل العلم غاية ، إذ هو وسيلة فقط . أما الغاية فيعيناها الأدب والفن والفلسفة ، أي كيف نعيش في مجتمعنا أصلح العيش وأروحه وأقصده وأشرفه .

وقد وضعت كتابي «نظرية التطور وأصل الانسان» ولي مأرب هو مكافئة الغيبيات الشائعة ، ونشرته كله مقالات في «البلاغ» قبل طبعه كتاباً ، كي أصل الى أكبر عدد من القراء . ومن الذكريات السعيدة أني وقت ذات يوم الى دكان صغير لا يزيد مساحته على ثلاثة أمتار مربعة اشتري لبني بعض الحلوى ، فعرفني البائع وأخبرني أنه قرأ كتابي هذا وفهمه .

ولو أني وجدت التشجيع لأرصد تحياني لإخراج كتب شعبية مثل «نظرية التطور» و«أسرار النفس» ، ونحوها وكثيراً ما كنت أتمسر حين كنت أرى مؤلفات العقليين في لندن . فإن كتاب «أصل الأنواع» الذي زلزل به داروين الثقافة الأوروبية كان يباع بأقل من خمسة وعشرين ملياً .

وحوالي ١٩٣٠ وجدت أنا والأستاذ صروف الفرصة سانحة لإيجاد حركة علمية شعبية في مصر . ففقدنا العزم على تأليف «المجمع المصري للثقافة العلمية» . وكانت الغاية منه أن يضم جميع المهتمين بالثقافة العلمية ونشرها بين الجمهور . ونجحنا في المشروع نجاحاً لم نكن نتصوره ، مما دل على أن المجمع أدى حاجة عضوية فيسيولوجية في مجتمعنا . عقدنا الاجتماع السنوي الأول له وألقيت فيه محاضرة سيكلوجية عن طبيعة التفكير في ضوء الأحلام في قاعة الجمعية الجغرافية . ولكني في ذلك الوقت كنت أمارس نشاطاً سياسياً مركزاً في مكافئة اساعيل صدقي (باشا) حين ألغى الدستور واستبدل به غيره ،

واتفق مع المستعمرين والمستبدين على إعادة الحكم التركي الشرعسي الذي حاول عرابي أن يحطمه . وأدى نشاطي هذا في السياسة الى طردني من المجمع .

وكان من حظنا السيء أننا اخترنا معظم الأعضاء من الموظفين . ولذلك حين اختير حسين سري (باشا) رئيساً لاجتماعه الثاني أرسل الي خطاباً يفصلني من المجمع «مع الشكر» . وكان وقتئذ وكيلاً لاحدى الوزارات ، فوافق جميع الأعضاء «الموظفين» ولم يشذ غير واحد ، غير موظف ، هو الأستاذ اسماعيل مظهر . وجاء في عقب طردي الصديق زكي أبو شادي يعتذر الي بأنه لم يجرؤ على مخالفة «وكيل الوزارة» ولذلك أعطى صوته ضدي ووافق على طردي ، على أنه يعرف أنه ليس من حق المجمع أن يفصلني لنشاطي السياسي .

واتجه المجمع بعد ذلك وجهة اختصاصية غير شعبية ، ولذلك لم ينتفع به الجمهور كثيراً . وعندما أقارن بين الثقافة العلمية والثقافة الأدبية أجد أن القيمة العظمى للأولى أنها تحريرية . لأن التفكير العلمي يسير على نهج ارتقائي : هذا سيء فيجب أن نبحت عن الحسن ، وهذا أحسن ولكن يجب أن ننشد أحسن منه بالإكتشاف والإختراع . والتفكير الارتقائي هو بطبيعته تفكير علمي . وهو لم ينشأ في أوربا إلا بعد أن اتجه الأوروبيون وجهة علمية في القرن السابع عشر . أما قبل ذلك فلم يكن هناك من يقول بأن الشعوب يجب أن ترتقي وتتغير . وقد رد هنا علي بأنه كان هناك طوبويون يتخيلون حالاً سعيدة للبشر غير حالهم الحاضرة ، ولكن الفكرة الارتقائية لم تنبت قط في هذه التربة الطوبوية ، وإنما نبتت من البذور العلمية .

ديدرو مع الموسعين .



الانتاج الفكري العربي منذ عشرين سنة

الخليج . . الخ . وبصفة أعم إسهام المغرب العربي في الانتاج الفكري أكثر من ذي قبل وبأكثر منهجية .

وما يلحظه المرء طوال هذه الفترة هو : (١) من جهة تضخم الانتاج كياً ، ولولوج أبواب كانت مغلفة في السابق ، نشاط حركة الترجمة ، نشاط حركة النشر وتفرعها ببيروت ، بروز معاهد فكرية - ثقافية تلعب دور همزة الوصل بين المثقفين العرب وتحاول استعمال جزء ضئيل من الربح البتسرولي .

(٢) ومن جهة ثانية : سيطرة العامل السياسي الآتي على الأفق العربي بدرجة لم يكن لها مثيل في السابق - نحو وتطور وهيمنة وسائل الاعلام - انخفاض قدسية الفكر والبحث العميق وتدهور المطمح العلمي ، بحيث صار الكتاب في بعض الأحيان نتاجاً مبتذلاً عادياً ، وهذا من ما يفسر تكرر عدد الكتب وقلة ما يرجى البقاء منها أو يترجم من مجهود طويل النفس .

دائماً على الصعيد الفكري ، نلاحظ انفتاحاً كبيراً في الوسط الثقافي على التيارات الفكرية الخارجية وذلك تبعاً لطاهرتين : - تكاثر المحرّجين من الجامعات الأجنبية : أمريكية - سوفياتية . . الخ . وتكتيف العلوم الانسانية على القطر الحديث داخل البلاد العربية وفي الجامعات العربية بالذات .

- تضخم حركة الترجمة ، والصفة العشوائية التجارية الرخيصة التي كثيراً ما تتمس بها هذه الترجمة .

وهذه التيارات لا يمكن حصرها ، على أن التيارات التي أثرت في العشرين سنة الأخيرة هي : الماركسية ، العلوم السياسية وفقاً للنمط الامريكي ، البنوية والسائنية وهذا تأثير فرنسي بباريسي .

نظّم رجل الفكر العربي منذ عشرين سنة :

بيننا كئنا نجد الى حدود الخمسينات رجال ثقافة وفكر من غط الشخصية الكبيرة ذات التأثير الواسع على الجماهير والنخب

هشام جعيط من المثقّرين العرب في المغرب العربي . ولد في تونس العاصمة في ديسمبر/كانون الأول ١٩٣٥ . درس في جامعة الزيتونة وفي المدرسة الصادقية ، بعد ذلك انتقل الى باريس حيث درس في دار المعلمين العليا وفي جامعة السربون وبعد تخرجه درس في جامعة باريس وفي جامعة تونس . اهم في كتبه وفي الدراسات التي نشرها باشكالية العلاقة بين الغرب والشرق وكيف يرى الأوروبيون الإسلام . من أهم كتبه المصير العربي ، دار الساي ، باريس ١٩٧٠ ودار الطليعة - بيروت - ١٩٨٣ .

لقد سبق أن وقع مسح للانتاج العربي وتقييم له من طرف هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية ببيروت ، لكن هذا المسح يقف في أوائل الستينات ، ذلك أن مجلد «الفكر العربي في مائة سنة» قد برز في منتصف الستينات . ولهذا سنحاول التعرف عما جّد من جديد في نتاجات الفكر العربي منذ تلك الفترة . وسنبداً أولاً بملاحظات عامة ، ثم نستعرض قطاعات الانتاج من تاريخ واقتصاد . الخ ، وأخيراً نقيم هذا الانتاج ونعرض حلولاً وقتية .

١ - ملاحظات عامة

إن الجو العام الذي أثر في هذه الفترة على الانتاج الفكري العربي بدءاً من الستينات هو جو سيطرت عليه عدة ظواهر مترامنة أو متتالية : استقلال بلدان المغرب العربي وبلاد عربية أخرى ، حرب حزيران والنكسة التي صاحبها ، وفيما بين ١٩٦٣ و ١٩٧٣ تقريباً ، النمو الاقتصادي الضخم للعالم الغربي وسيطرة الاقتصاد العالمي على الوطن العربي ، حرب ١٩٧٣ وتغير الأجواء الاقتصادية لفائدة العرب ، وتبقى المشكلة الفلسطينية مطروحة على الضمير العربي طوال هذه المدة . ونلاحظ أيضاً أنه لم يقع أي تقدم محسوس في بناء الوحدة العربية ، وأن النظم القائمة في الأقطار العربية دلت على تماسكها ودهومتها .

على الصعيد الفكري ، وداخل الساحة العربية ، ما يجلب اهتمامنا هو بروز عديد من الجامعات الفتية في البلاد العربية ، في تونس والجزائر والمغرب وليبيا والسعودية وبلدان

(طه حسين، العقاد...)، فإن ما نجد الآن هو وسط فكري فقط تلتقي فيه عدة روايف ويلعب دوراً على الساحة العربية، لكن هذا الدور مبتهش من طرف الساسة والجماهير. هذا الوسط الفكري يتركب من أربعين أو خمسين شخصاً لهم اهتمامات تتجاوز الحدود النظرية، وتتجاوز العمل الأكاديمي البحت، ويحاولون - انطلاقاً من اختصاص معين أو تجربة معينة - التفكير في مجمل المشاكل العربية. أما الأكاديمي العادي أي الأستاذ الجامعي الذي لا ينصرف إلا لاختصاصه، فالمفروض أنه شخص موجود بكثرة، لكن يبدو أنه لا يثابر على البحث المتخصص، ولذا فهو لا يظهر بمظهر العالم المختص لكن بمظهر المدرّس الصغير. وهنا نصل إلى نقطة استفهام وإلهام: فالوعي العربي لا يحسن التمييز الصارم المضبوط بين العالم المختص في أحد ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية، وبين المفكر الحقيقي صاحب النظرة الشمولية المتجاوز للاختصاصات، والذي يأتي برؤية وبمفاهيم مع عمق في النظر واستقلالية في منابع التفكير. ليس كل من يفكر مفكراً، وليس كل مختص عالماً، وحقيقة الأمر تلخص إذن في هذه النقاط:

- إن وجد وسط فكري نشط، فلا يعني أن نخفي في الوطن العربي أربعين أو خمسين مفكراً ذوي مستوى مرتفع. إن وجدت عديد من الجامعات، فإن عدد الباحثين المختصين والمثابرين طول حياتهم على تعميق معرفتهم العلمية قليل. - يجب إذن أن نتحاشى الخلط بين المفكر المبدع والباحث المختص من جهة، وبين هذين الصنفين وأصناف أخرى من أمثال الخبير والصحافي والسياسي المهني ورجل الثقافة من جهة أخرى. إن هذا الإبهام ينعكس على تقسيم مادة البحث المطلوب منا. فهناك ما يدخل تحت تسمية «الفكر» أو «الإيديولوجيا»، وهناك ما يدخل فقط تحت تسمية علوم اجتماعية وإنسانية، ولم يقع التمييز بعد بصفة واضحة.

٢ - الانتاج «الفكري»

(أ) مجال التفكير القومي

في هذا المجال، يبرز بصفة أوضح، ما هو مجال التفكير وما هو مجال التحليل. وليس ما كتبه ميشيل عفلق وإلياس فرح والرزاز وغيرهم في إعادة صيغة الفكرة القومية مماثل لما كتبه السيد ياسين (تحليل مضمون الفكر القومي العربي، بيروت ١٩٨٠) ومادلين نصر وسعد الدين إبراهيم وهي دراسات استطلاعية وسوسولوجية. الصنف الأول يدخل في مضمون

التفكير القومي وهو تيار فكري - إيديولوجي، والآخرون يدخل في بوتقة العلوم الاجتماعية ذات الطابع الأكاديمي. والذي لنحظه في هذا الطور الأخير من تاريخ الفكر القومي هو أنه لم تبرز شخصيات تنظيرية من طراز الكواكبي ثم الحمصي أو عفلق. ولعل ذلك قد يوعز إلى كون القوميين استولوا على الحكم في كل من سوريا والعراق، وأن التفكير عندنا هنا كسبه الأمر الرسمي وحق الدعائي. ومن الناحية الكمية، تكن المفارقة في التناقض بين الانبثاق الكبير للعواطف القومية في الجماهير العربية ولو بصفة غامضة، وبين قلة التراكمات الفكرية والنتاج القومي البحت. فبينما تتعدد أسماء كل من خاض في الإيديولوجيات الرخيصة الثورة والقومية والنضال الفلسطيني وما ينسب إلى التفكير السياسي - الاقتصادي بخصوص الامبريالية وغير ذلك من الأغراض. وقد تعدت هذه الأسماء بالآلاف وحتى الألوف، فإن الأسماء الجديدة التي حاولت تعميق التراث الفكري القومي تعد على الأصابع. ولندكر منها: إلياس فرح، وسعدون حمادي وشبلي العيسى ومحمد عمارة، ونديم البيطار، والرزاز. ولندكر أيضاً الخزيين العاشر والحادي عشر من نضال البعث. وأغلب هؤلاء المفكرين من رجال السياسة والعمل الحزبي.

نجد في هذه الكتابات تراجُعاً في البناء النظري لقضية القومية العربية إذ لم تعد هذه القضية دعوة كما كانت سابقاً، وتركز الاهتمام على العمل السياسي، لكننا نجد أيضاً إهمال العامل الاسلافي (محمد عمارة) والعامل الحضاري (إ. فرح) في التفكير القومي.

وعلى الرغم من هذا، يبقى هذا التفكير خجلاً وناقضاً وعقائدياً وبعيداً عن مشاكل الحداثة والتنمية. هو ما زال أسير الشعارات الضفافة من مثل ثورة وجهاء، وكثيراً ما يتكلم لغة الحرب، لا لغة المنطق (أنظر نقد العروبي لكتاب البيطار عن الإيديولوجيا في كتابه الأخير «الأدوية»). وهو تفكير أحادي له منطلق معين وبعيد أكثر فأكثر عن مفاهيم الفرد والتاريخ والفن والمجتمع (هناك محاولات عند الرزاز وإ. فرح). وما يدل على أن فكرة القومية كما تمارس الآن لا تخلق تنظيراً عميقاً إنسانياً مقبولاً من الضمير العالمي أو من النخبة العربية، أن «مركز دراسات الوحدة العربية» ينشر دراسات ميدانية ودراسات اقتصادية ولا يكاد ينشر شيئاً في المجال النظري.



1933 zur Lipfe + Dichtung

بول نكي : رأسان ، ١٩٣٣ .

ب) مجال التفكير الفلسفي

(١) لا بد أن نعترف بأن العالم العربي ، بعد أكثر من قرن من ظهور حركة النهضة ، لم يبرز ولا حتى فيلسوفاً واحداً من طراز متوسط سواء من كتب بالعربية أو بلغة أجنبية . ولذا لا بد من الاعتراف بأن التقليد الفلسفي العربي الاسلامي مات خلال عصور الاضطهاد ولم يخلف شيئاً . وأعجب من هذا أنه لم يتلمذ أحد من الأجيال السابقة (جيل العشرينات والثلاثينات) على أحد كبار فلاسفة الغرب وهم على قيد الحياة وقسائين بالتدريس ، من أمثال Husserl ، Bergson و Heidegger .

المسلم - غير العربي - الوحيد الذي نهل الفلسفة الأوروبية من أصولها واستعمل مناهجها لإعادة التفكير في الجهاز ، الاسلامي ، هو محمد إقبال . ومع هذا لم يكن إقبال بالفيلسوف الكلاسيكي

أي صاحب النسق الفلسفي ولم يدع هذا قط ، لكن كانت له مقدرة على أن يصوغ الأفكار في سياق فلسفي أصيل .

(٢) بقي على العرب أن يبحثوا في تاريخ فلسفتهم الخاصة ، وهذا لم يقع بصفة جدية قبل الستينات .

وبعد الستينات ، نلاحظ بروز عدد من الكتب ذات القيمة حول التراث الفلسفي منها :

- كتاب محسن مهدي حول فلسفة ابن خلدون السياسية .
- كتاب ناصيف نصار حول فلسفة ابن خلدون واسمه «الفكر الواقعي عند ابن خلدون» .
- كتاب محمد اركون حول فلسفة ابن مسكويه .

وتتقننا الآن دراسات جدية للتراث الميتافيزيقي العربي الاسلامي (ابن سينا ، ابن رشد) . وحول نشأة وتطور الفلسفة

عند العرب . وهنا لابد من ذكر كتاب طيب التيزيني «مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط» ، (دمشق ١٩٧١) هذا الكتاب يرمّ عن مقدرة صاحبه الفلسفة الجيدة ، لكنه يبرز أيضاً ما يمكن أن نسميه باجهاض مشروع لتاريخ الفلسفة . ذلك أن صاحبه يتيه في فلك الماركسية المتبدلة التي يريد أن يفسر على ضوئها كل شيء ، ويفسر كذلك هويته أكثر من هذا في مقدمته التاريخية العامة والاسلامية التي شوّعت الكتاب تماماً .

وهذا القول ينطبق أيضاً - ولو بدرجة أقل بكثير - على تطور عماد أركون وناصيف نصار . كلاهما أقم نفسه في فلسفة الدين وفي الفكر العربي العالم لترويج نظرية ايديولوجية .

أما كتابات الجابري (مثلاً نحن التراث) فمستوها جيد ولكن تغلب عليها الايديولوجيا الباريسية أي فكرة القطيعة الاستمولوجية .

كل هؤلاء المفكرين اغازوا من تاريخ الفلسفة الى فلسفة الثقافة ، أي أنهم دخلوا في صراعات الضمير العربي حول تأويل التراث والدين وإشكالية الشرق والغرب ، وكل هذا يؤسس لب التفكير الفلسفي العربي .

٣) أقول إذن بوجود فكر فلسفي - ايديولوجي عربي له خصوصيته في كونه يتمحور حول مشاكل ذاتية تتردد بكثرة . هذا التسج من الاشكاليات السياسية - الحضارية - الثقافية يمثل إسهاماً مهماً ، لكن بقي عليه أن يتجاوز الأفق العربي - الاسلامي وأن يدخل نطاق التنظير العام . هذه الاشكاليات نجدها في صلب المجتمع . في خطاب السياسي كما في خطاب الصحي ، لكنها لا تأخذ بعدها الفلسفي النظري إلا عند القليل . ولندكر من جملة هذه المجهودات كتب : عبد الله العروي وهشام جعيط والجابري واركون ونصار والتيزيني في كتاباتهم العامة .

(ج) مجال التفكير الاقتصادي

يمكن أن نعتبر سعيد حمادة رائد الدراسات الاقتصادية في العالم العربي بفضل كتابه «النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان» ١٩٣٦ ، وبفضل تدريسه أيضاً بالجامعة الأمريكية في بيروت ثم أتت فترة بعد الحرب العالمية الثانية ، جعل فيها علم الاقتصاد تقدماً لا بأس به في كل من لبنان وسوريا والعراق . في هذه الفترة ، برزت دراسات كما أنشئت مؤسسات . من الأسماء نذكر جبرائيل منسي وأمين الحافظ ، د. د. زلزلة و د. خير

الدين حسيب و د . أحمد سوسة . ومن المؤسسات : مجلة «الاقتصاد اللبناني والعربي» وكلية الاقتصاد ببغداد . ويبيح الى حدود الستينيات علم الاقتصاد العربي وصفيّاً وفي أفضل الأحيان تحليلياً تطبيقياً ، ويقترب من الجغرافيا الاقتصادية أكثر مما يحاكي علم الاقتصاد البحت . لكن مع هذا ، نجد الدراسات الجيدة عن الدخل والزراعة والصناعة . والفكرة التي طغت على البحوث الاقتصادية في العشرين سنة الأخيرة هي بالطبع فكرة النمو أو الإنماء ، وتحت لوانها قامت الدراسات الشخصية أو الجماعية (في الندوات) ، بحيث تحول علم الاقتصاد العربي الى بحث لا ينهي حول امكانيات التنمية . وبما أن عملية التنمية تستقطب العديد من القطاعات ، فإن البحوث انصبّت أيضاً على ما هو ديموغرافي ، واجتماعي ، وسياسي ، اعتقاداً على فكرة شمولية الإنماء ، ولا بد أن نلاحظ في هذا الصدد أن ارتفاع سعر النفط في سنة ١٩٧٣ أثر على أفق هذه الدراسات وفتح امكانيات للرؤية المستقبلية .

هذا وما زالت الدراسات الاقتصادية لم ترق الى مستوى التنظير العام وتتمحور حول فكرة التخطيط ، وهي تتأرجح بين الأفق القطري والأفق العربي العام . وقليلاً ما نجد كتباً هامة كتبها أفراد ، باستثناء البعض ، وتبقى أغلب المصادر منبثقة عن الجامعة العربية أو عن المؤسسات القطرية (مثلاً : المعهد العربي للتخطيط) ، أو عن مركز دراسات الوحدة العربية ، بحيث لا يظهر من أول وهلة أن انتاج الجامعات له وزن كبير في الميدان خلافاً للفترة السابقة . أما المقالات فهي عامة وتتناول مشاكل مستقبلية وهي في عددها أقل بكثير من المقالات المحررة من طرف الأجانب (أنظر على سبيل المثال البيبليوغرافيا الذي يقدمها د. عبد الحميد ابراهيمي في كتابه «أبعاد الاندماج الاقتصادي العربي واحتمالات المستقبل») . ولندكر من جملة الأسماء الالمة : د . يوسف صانع ، د . جورج قرم ، د . البشير دأوق ، د . خير الدين حسيب والآن د . عادل حسين .

(د) التفكير السياسي والاجتماعي

لا بد من التأكيد أن المجتمع العربي الذي يبدو متسبباً للغاية لم يفرز فكراً سياسياً علمياً وتحليلياً يندرج فيما يسمى بالعلوم السياسية . ولذلك أسباب : منها الرقابة والرقابة الذاتية ، ومنها أن الثقافة السياسية التي استحوذت على العقول أخذت شكلاً شفوياً والكتاني الرصين أهل لفائدة الباحثين الأجانب ، ومنها تقاع التفكير الايديولوجي المنحدر من الماركسية .

بينهم كتاب حنا بطاطو عن العراق والمعارضة الشيوعية
Princeton Press ، وكتاب الهرماسي حول المغرب
العربي California Press ، وكتاب محمود حسين
الماركسية المنبع ، وكتب أنور عبد الملك ، وهناك فصول
تخصص تحليل الوضع السياسي بالمغرب في كتب
العروي وجميع^(١) .

ومع هذا ، فالكمل يعلم في المنهجية الأمريكية من سطحية
ونقائص ، لكن الماركسية الميكانيكية الدغائية لا تفسر
شيئاً . في الجملة ، هذه البحوث تتسم بالطابع العلمي ولكن
المنهجية العربية لم تجد بعد في هذا المجال طريقها الخاصة
للبحث والتنظير .

أما الدراسات السوسيولوجية ، فنقصها فادح ولا نكاد نجد إلا
القليل من البحوث العينية حول وسط اجتماعي معين . الخطر
الكبير في هذه الميادين هو استعمال السياسة كسلاح أو كدعوة
إصلاحية أو الاقتراف في التنظير المنهجي . وما ينقصنا إذن هو
برنامج كامل للبحوث السياسية والاجتماعية يضيء لنا واقعنا
كما هو . وما عدا هذا ، فكل ما سمي بفكر سياسي عربي
هو دعوة وايدولوجيا ورؤى شخصية في الغالب مقولبة في
قالب واحد .

(هـ) الفكر التاريخي والبحوث التاريخية

المنطقي أن يكون هذا الميدان أخصب ميادين الانتاج الفكري
لما انتمت به الحضارة العربية من عمق تاريخي وأيضاً من
تقاليد تاريخية عريقة . لقد قامت النهضة العربية منذ أكثر من
قرن على نبش التراث ، ونشر أمهات الكتب ، والاهتمام
بأضي العرب من عدة نواح ، وبالمخصوص الوجهة الثقافية
وقامت الأجيال السالفة بعمل ريادي في الكتابة التاريخية
(طه حسين ، أحمد أمين ، جرجي زيدان ، حسن إبراهيم ،
جواد علي) وهي كتابة أرادت لنفسها تجديد الرؤية للماضي .
الا أن هذا الجهد انخرس كثيراً في الستينات ، هذا مع ظهور
المؤرخ المهني المختص في إطار الجامعات . ونتج عن هذا أننا نجد
مؤرخين جديدين ، لكن عددهم قليل ، وتأثيرهم على جمهور
المثقفين أقل . ونذكر من بين رؤوس هذا الجيل الجديد عبد



بالول كلي : الناقد .

وهكذا عندما نتوقف عند قائمة مطبوعات دار نشر كبيرة في
بيروت ، نجد تحت عنوان «السياسة والمجتمع» بليخانوف
وفانون وغرامشي ، ونكاد لا نجد عربياً واحداً جاداً . غير أن
كل هذا لا يدخل في صنف العلوم السياسية التي تتوخى
البحث في السلطة ، ومدى مشروعيتها ، وإشكال ممارستها ،
وأسسها الاجتماعية والايدولوجية ، بحيث لا نجد تقريباً
دراسات قامت بتحليل الأوضاع بمصر والعراق وسوريا
وتونس والمغرب الخ . . دون الانزلاق في هاوية الايدولوجيا
الرخيصة . وعلى العكس فالأعمال الأمريكية حول وضع
الشرق الأوسط تكلرت في الستينات ، وهي أعمال منحازة في
الغالب ولها نظرة خاصة الى المشاكل العربية الكبرى .

أحسنا ما كتب في هذا الميدان ، كتبه عرب باللغات الأجنبية
وعادة في المناهج الجامعي الأمريكي أو الفرنسي ؛ ولندكر من

(١) لكن لا بد من ذكر الجهود التي يقوم به مركز الدراسات الاستراتيجية للأهرام بالقاهرة
تحت رعاية الدكتور سيد ياسين . من مجلة الباحثين الجديدين الدكتور علي الدين هلال الذي
انصب اهتمامه على مشاكل العلاقات الاقليمية وأكثر فائزاً على مشكلة وسوم الدولة -
الفائدة .

الذكر والتنويه . لكن ما يلاحظ ويؤسف له هو فقداننا لمجلة تاريخية ذات قيمة عليا تشع على الساحة العربية بأكملها ، بينما مجلات الاستشراف كثيرة .

وواضح أن كل مشروع ضخم لكتابة التاريخ العربي ، على شرط أن يتحلى بالمنهجية العلمية والمستوى الرفيع حتى يصبح مرجعاً عالمياً ، كل مشروع من هذا القبيل يكون محل ترحاب لأنه يجمع الطاقات المبعثرة . ونحن على علم بشروعين من هذا القبيل : «مشروع التاريخ الاجتماعي العربي الاسلامي» ومقره الكويت ، و «مشروع الموسوعة الادارية» ومقره عمان . لعل في هذا ما يحفز هم الباحثين المعروفين وهم الشباب من بقي ضائعاً تائهاً لا يبرتي لنفسه مستقبلاً في الأجيال القادمة الآن .

٣ - تقييم عام وحلول للمستقبل

هناك عدة سمات بها الثقافة الفكرية العربية المعاصرة . وأول مميزات كونها ثقافة تساؤلية عملة بالروى المستقبلية أي هي ثقافة أمة تسائل نفسها عن مصيرها اليوم ، وعن علاقاتها بالعالم الخارجي ، وبماضيها على السواء . وليست ثقافة إبداعية بالمعنى الذي تحمل فيه نظريات عامة حول الانسان والتاريخ والمجتمع عامة . ولذا بدت التيارات التي تحترقها تيارات سياسية ومذهبية أكثر منها مدارس فكرية . فمن مفكر له اتجاه قوي الى آخر فقطري ، ومن الاسلامي الى العلماني ومن التحديفي والمغرب الى الترائي الى آخر ذلك ، وهذا الفاصل ندرکه تقريرا في أي اختصاص معين ، لدى المؤرخ والفيلسوف وعالم الاجتماع والاقتصادي والمفكر السياسي طبعاً .

الى حد بعيد يبقى الفكر العربي أسير النزعة الاصلاحية بالمعنى العام ، وما زالت الثقافة العربية تخاضع نفسها والدنيا حول إشكالياتها الأساسية : لماذا تقدم غيرنا ولم نتقدم نحن ؟ .

ليس من شك في أن صدمة الحداثة لم يقع تجاوزها منذ قرن ونصف وأن البحوث الفكرية ما زالت تتخبط في مثل هذا الأفق مع رجاء التأثير على الواقع مباشرة . ويكون من عدم الانصاف أن نطالب الثقافة العربية الفكرية اليوم بأن

العزير الدوري (تاريخ العراق الاقتصادي) وصالح أحد العلي (التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري) . ثم تسلاها من بعد شعبان Islamic History و Abbassid Revolution ، وفاروق عمر (طبيعة الدعوة العباسية : العباسيون الأوائل) . ونسج على هذا منوال ص . العلمي والدوري ، وهشام جعيط الذي كتب في أطروحته عن «الكوفة في القرن الأول والثاني للهجرة» . وهكذا فيما بين ١٩٤٨ ، وتاريخ بروز أطروحة الدوري ، و١٩٨١ تاريخ بروز أطروحة جعيط ، أي طوال مدة ربع قرن لا نجد الا خمسة مؤرخين اقتصوا في الفترة الكلاسيكية الكبيرة ، أي الأربعة القرون الأولى وهي فترة لها دلالة خاصة . ان كتابات هؤلاء المؤرخين الحسنة هي تقريباً الوحيدة في كل الانتاج العربي في ميدان العلوم الانسانية المعترف بها عالمياً كبحوث جدية .

ومع هذا فهم قلة ، اضافة الى ما يجدون صعوبات في تكوين مدرسة تاريخية لولع الناس بكل ما هو حديث ومعاصر ، ولانصراف الباحثين عن كل ما هو «ترائي» ، في حين أن المسألة ليست مسألة تراث وإنما مسألة معرفة تاريخية مضبوطة وقائمة على أحدث المناهج . وعلى كل فبهذه الدراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والحضاري تجاوزت بكثير كل ما كتب في السابق كما أنها تتجاوز الكثير مما يكتب الآن من تاريخ مبتذل ضعيف حتى في الأوساط الجامعية . أما ما يخص فترات أخرى ورفاع أخرى من الحضارة العربية ، فإننا نلاحظ جهوداً محترماً بالمغرب (بحوث العروي والجنحاني والطالبي) . لكن لا بد من أن نذكر أن الولع بالحديث والقريب منا لم يأت بثمار جدية : فهل لنا تاريخ جدي لربعة الملال الحبيب منذ قرن . في هذا المضمار ما زلنا عالمة على كتاب جورج أنطونيوس .

وأخيراً لا بد من الإشارة الى ما يقوم به الأثريون في العالم العربي (بصر وبالمخصوص بالعراق) من جهود قديم في استكشاف الحضارات القديمة .

أثنا نجد مجلات تاريخية قيمة منبثقة عن كليات الآداب في لوطن العربي (القاهرة - بغداد - البصرة - الرباط على سبيل المثال) كما أن مجلة المجمع العلمي العراقي تستحق

تتخلل عن المناخ الذي تعيش فيه كما عن الاشكاليات الموروثة فقد يكون هذا من باب المستحيلات . لكن مع هذا ولو قبلنا الأمر تماماً لوجب علينا أن نصرح بأن هذه الثقافة لا تساهم في الجهد البشري لفهم وعقل العالم الانساني في تاريخه واقتصاده وقوانينه الاجتماعية وسننه اللغوية وتجديد التفكير الفلسفي فيه .

فلئن وجب أساساً على العرب أن يقوم فكرهم بتفهم مشاكلهم الذاتية بتعميق أكثر للأمور وحقق أدق للمنهجيات ، فواجب على البعض منهم أن يشجعوا على خوض المارك الفكرية العامة . وإذا كادت النقطة الأخيرة تكون منعومة ، فإن النقطة الأولى تشكو أيضاً من ضعف كبير . وفي هذا الصدد لا بد أيضاً أن يُمَيَّز بين الانتاج الايديولوجي الموجه للجماهير (الذي قد يكون لازماً) والذي ينتج العدد الأوفر من الكتب والدوريات ، وبين الانتاج العلمي الجيد أو الانتاج الفكري العام ذي المرتبة الرفيعة .

هذه الدائرة الأخيرة - على الرغم من عناصر تقدم ملموسة - ما زالت ضئيلة . وقد أكون متعسفاً لو قلت إن العرب لم يصدروا أكثر من مائة كتاب في شتى الميادين الموسوعة تتمتع بالمستوى المرجو ، وهي دراسات تخص وضعهم أو تاريخهم الخاص . والملاحظ مع هذا أن الثقافة العربية عريقة في هذه الميادين ، أي ميادين التحليل والعلم الانساني والقانون والتاريخ والاقتصاد . هي ثقافة فكرية ذهنية من قديم . وأدل دليل على ذلك أننا نفخر بابن سينا والطبري والمقدسي والبيروني ، بينما يفخر الانكليز بشكسبير والفرنسيون بروناتيم أو كتاب التراجم عديم . الشعر والفكر هما سأت الثقافة العربية وليس الابداع الأدبي الخيالي . ليست الثقافة العربية القديمة - سوى في المستوى الشعبي المكتوب - ثقافة خيالية بل هي ثقافة جامعية وعقلية .

وعا أن التقليد الثقافي يسيطر على مناهج الابداع ، فلا أرى أن عرب اليوم سينبغون في الميدان المسرحي أو في الميدان الروائي أو في ميدان الفن الكلاسيكي ، بل في ميدانهم المعهود الذي كانوا يسمونه علماً وحكمة ونسبهم اليوم : علوم إنسانية - علوم اجتماعية . تفكير شعوي يتسم بالعمق . وإذا عجز العرب عن إنشاء سوسولوجيا بالمعنى الصحيح وتاريخ وعلم جغرافيا

واقتصاد وعلم سياسة ، فهم في غير ذلك أعجز ! إن كل عمل في سبيل إحياء هذا الاستعداد وخلق كيان علمي وفكري لعرب اليوم هو عمل ذو بُعد مصري . لأن الأمة قامت على فكرة مجدها الثقافي وهذا منذ أكثر من قرن ، ولا يمكن البتة أن ينحصر هذا المجد في الماضي ، بل علينا أن نؤسس مجداً جديداً يعطي الأمة العربية مقامها بين الأمم .

ثم إن هذا الجهد لو أعطى حقه ، لرفع على الأمد البعيد المستوى الذهني لأمة بأكملها وأقمها قسراً وعلى المستوى العميق في العقلانية الحديثة .

صور المستقبل أو شروط التقدم

- تحسيس الحكومات والجماهير بهذه القضية وتشجيع القراءة وتحسين صورة العالم المفكر .
- لا بد من سياسة كتاب حكيمه .
- الجامعات العربية غير مؤهلة اليوم للقيام بهذه الجهود ولذا وجب تعزيز وتطوير كل الأقسام المعنية.
- وجوب تكوين مراكز للعلوم الانسانية والاجتماعية متفرغة تماماً للبحث ومنحها الاستقلال التام عن النظم الحاكمة والهيئات الايديولوجية .
- وجوب تكوين مركز عربي يسمح الساحة العربية كلها ويكون من طراز عال للبحث والتفكير الحر ، يلتقي فيه علماء زائرون من الوطن العربي ومن الخارج على السواء . ويقع فيه تبادل الآراء والبحوث والتفرغ للكتابة لمن يشاء . ويجهز هذا المركز بمكتبة شاملة . ولا يكون شكله بيروقراطياً .
- وجوب تدريج الطلبة على معرفة اللغات الأجنبية
- لا بد من إخراج العلماء العرب من الفاقة العادية كي يتفرغوا تماماً لأبحاثهم وأعمالهم .
- تشجيع مشاريع تستهدف :

- تكوين مجلات علمية دورية ذات سمعة عالمية وهذا على النطاق العربي ، أي لا بد من مجلة تاريخية عربية وأخرى لعلم الاجتماع وأخرى للعلوم السياسية وغيرها للفلسفة وأيضاً للاقتصاد .

اننا نلاحظ وجود مجالات ثقافية متنازة ، لكن لا وجود لمجالات ذات طابع علمي أكاديمي .

ان المشاريع الكبيرة كتصنيف موسوعة تاريخية وموسوعة فلسفية . الخ لها في الطرف الحالي أهمية بالغة لاستقطاب وتجميع القوى ، وفتح أبواب الأمل والطموح أمام الباحثين .

خاتمة

لقد حصل في الجملة تقدم نظري في معالجة مشاكل العالم العربي من الوجهة الفكرية . فلم نعد عالة على المستشرقين في دراسة تاريخنا ولا على الخبراء الأجانب في دراسة اقتصادنا . لكن

نلاحظ أن هذه الجهود قامت بفضل أناس آمنوا بالفكر والثقافة ، وقليلاً ما حظوا بتشجيع من الحكومات أو الجماهير والخطر اليوم أن يهدر هذا الجهود وأن ينقرض علماءنا دون أن يتمكنوا من تكوين أجيال جديدة على ما يلزم من حب للمعرفة ومنهجية كاملة . هذا تخوف ليس مصدره التشاؤم وإنما حقيقة الأمور . وعلى العكس ، لو تحّث العزيمة وتطافرت الجهود وأعطيتم الامكانيات المادية والأدبية وتحسن المناخ العام ، فليس من المستحيل أن ندخل الألف الثالث مسلحين بنخبة متنازة ويعلم عربي صحيح يكون له من التأثير القريب والبعيد ما قد ذكرت .



ملحق

من الدراسات الجديدة التي تسترعي الانتباه نذكر :

- د . الجابري : الخطاب السياسي العربي ، الطليعة ، بيروت ١٩٨٢ .
- د . عبد الفضيل : الفكر الاقتصادي العربي .
- د . عادل حنين : الاقتصاد المصري من الاستقلال الى التنمية ، (١٩٧٤ - ١٩٧٩) ، المستقبل العربي ، القاهرة ، ١٩٨٢ . بالنسبة

لنظريات التنمية ، هذا الكتاب يمثل نقداً للنظرية الغربية كالنظرية الماركسية .

ولنذكر من مجلة الاقتصاديين فؤاد مرسى (لم يصل الى مستوى عال في التنظير) وجلال أمين (مجد عنده نقداً لفؤادج التنمية) . أما سير أمين فدراساته تبقى عللاً للنقاش .

شهرزاد والحركة الرومانتيكية في أوروبا

حدث مراراً منذ عصر النهضة أن قام أشخاص بإداء أدوارهم على
المسارح الإيطالية متنكرين في زي «الشرقيين» . ولم يكن
الشاعران الإيطاليان «أريوست Arioste» (١٤٧٤ -
١٥٣٣) و «تاسو Tasso» هما الوحيدان اللذان نزعاً إلى

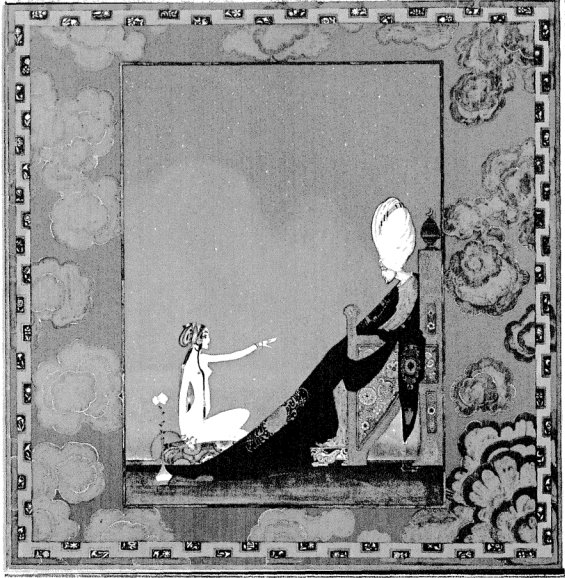


كاي نيلسن : رسوم مستوحاة من ألف ليلة وليلة .

التدهور التدريجي لسيطرة الايديولوجية المسيحية ، ليسهل توجه أوروبا الثقافي باتجاه العالم الاسلامي . ولجأة أصبح للشرق أثر بحري على أوروبا . ولم يعد عالم الخلفاء والحكايات الخرافية والحوار والمغامرات والقصص الخيالية يجذب اليه الرحالة والرسامين لمحب ، بل الشعراء والأدباء أيضاً . غير أن هؤلاء - وهم يتغنون بهذا الشرق «الجديد» - ظلوا أسيري تلك الصور الوهمية التي ساهم الرسامون الاستشراقيون في ايصالها اليهم . ونحن نجد هذه الصورة واضحة في أعمال موليير «البورجوازي النبيل» وراسين (١٦٣٩ -

الاغرابية اذ لم يمض وقت طويل حتى بدأ الممثلون في مسرحيات موليير Molière (١٦٢٢ - ١٦٧٣) يرددون كلمات تركية أثناء تأدية أدوارهم . وفي القرن السادس عشر عندما بدأ أوائل الأوروبيين تدريجياً في الترحال الى الشرق ، أخذ بعضهم بعد العودة الى أوروبا في ارتداء ملابسهم على «الفسط التركي» ، أي السروال الفضفاض والطربوش والجوارب البيض .

انعكست عالمية العصر الجديد وتطلعاته الموسوعية في أدب متكلف ومتصنع وفي حاجة ملحة نحو التفریب الثقافي . وجاء



كالي نيلسن : رسوم مستوحاة من ألف ليلة وليلة .

(١٦٩٩) «باجريه» ومونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ -
 ١٧٥٥)، «رسائل فارسية» وفولتير Voltaire (١٦٩٤ -
 ١٧٧٨)، وشاتوبريان Chateaubriand (١٧٦٨ - ١٨٤٨)
 ولامارتين (١٧٩٠ - ١٨٢٩) وفلوبير Flaubert (١٨٢١ -
 ١٨٨٠) «صالميو» .

عندما كتب غوته Goethe أبياته الجميلة هذه ، كانت أوروبا
 قد شارفت حينذاك على أبواب قرن شكل ولم يزل يشكل
 صورتنا عن الشرق وعن عالم الاسلام . ونظراً لانعدام
 مصلحتنا في ذلك الوقت ، في الحصول على معرفة موضوعية
 حول ذلك ، فقد ظلت تلك الصور الوهمية والمهزوزة قائمة
 الذات .

ساهمت في المقام الأول حكايات ألف ليلة وليلة في خلق تلك
 الصور الرومانسية الخيالية عن الشرق ، إذ حملته معها ونقلته
 الى الغرب . ونسئ للغرب من خلال حكايات شهر زاد
 اكتشاف الشرق . ولا يوجد مؤلف شرقي أثر تأثيراً قوياً في
 الأدب الأوروبي مثل تلك الحكايات الشعبية الرائعة والجزابة .
 وبين ليلة وضحاها أصبح هذا الكتاب جزءاً لا يتجزأ من
 الأدب العالمي تماماً مثل «إلياذة» Homeros ،
 و«أينيس» Aeneis و «فرجيل Vergil» و «ديكاميرون»
 Decamerone و «بوكاتشيو» Boccaccio والملمحة الألمانية
 القديسة Nibelungenlied .

خلال القرن الرابع عشر بدأ الأوروبيون عن طريق الرحالة
 القلائل للشرق ، يعرفون الاطار العام لقصص شهرزاد الجميلة
 التي حاولت طوال ألف ليلة وليلة ، أن تقصّ على الملك
 شهریار حكايات مجيبة لتصدّه عن قتلها . وكان التأثير الأول
 في إيطاليا . وكان بوكاتشيو أول من استفاد من الاطار العام
 لآلف ليلة وليلة وذلك في راعته «ديكاميرون» ومعناها
 «الأيام العشرة» .

لا تعكس صور الغرب عن الشرق إلا جزءاً من الواقع . وهي
 تعكس بالدرجة الأولى وضعاً تاريخياً : إذ منذ حصار فيينا
 عام ١٦٨٣ بدأ تحوّل تدريجي في رؤية أوروبا للشرق الذي
 كان الأتراك العثمانيون آخر ممثليه التوسعيين . ولم يعد ينظر
 اليه كشیطان مخيف . صحيح أن الشرق الاسلامي ظل بالنسبة
 لأوروبا عدواً ولكنه كان عدواً مدحوراً مصيره الفشل
 والهزيمة ونظراً لأنها شرعت منذ القرن الثامن عشر في الإعداد
 للاسراع بهذه الهزيمة ، فقد أباحث لنفسها تمجيد الشرق كهد
 للديانات والحضارات القديمة . وكان هذا التمجيد يتعاظم كلما
 ازداد تدهور الشرق وسقوطه . وقد نتج عن هذا التمجيد
 ظهور عدد كبير من اللوحات والكتب الرومانسية مستوحاة
 من العالم الاسلامي ظل جامها الساحر الرائع أسطورة قائمة
 بذاتها مثل الشرق . .

بروعة وجلال

تحتل الشرق البحر المتوسط

وحده الذي يعرف «حافظ» ويحيه

يقدر أن يدرك ما غناه «كالدرون»



المتوفرة ، وإنّ أعاد صياغتها بالفرنسية كما تملّها ، وقد كتب الفقرات العربية المكتوبة بلغة متعثرة ، بلغة فرنسية سلسة ومصقولة . كما أعاد صياغة المقاطع الشعرية نثراً وحذف بعض التفاصيل تماماً ، وبني من جديد حكايات كثيرة مستغنياً - مراعاة لاخلاقية عصره - عن فقرات وأحداث ربما كانت تبدو مبتورة ، أو غريبة ، أو غير مألوفة بالنسبة للفرنسيين في ذلك الوقت .

ولكن رغم الاسقاطات والتغييرات التي أجراها غالان على النص العربي ، فإن ترجمته تلك هي التي ولّدت ذلك الحساس الكبير لمعرفة الشرق وتلك الرغبة المحمومة في الضياع في متاهاته الشاسعة .

وقد بدأ هذا التوجه الجديد في فرنسا في منتصف القرن الثامن عشر ، ثم انتقل الى انكلترا ليصل أخيراً الى ألمانيا . ويمكن القول بأن الحركة الرومانسية مدينة بدرجة كبيرة لهذه الترجمة . بل أن هناك من يذهب أبعد من ذلك ، ويقول أن الرومانسية الأوروبية قد ظهرت في تلك اللحظة التي قام بها شخص ما في النورماندي بقرءة ترجمة غالان لالف ليلة وليلة .

الشرق - «العالم المغاير» - لأوروبا

خلال القرن الثامن عشر ، حاولت أوروبا العقلانية والمتنهمة والضجرة الى حد ما ، أن ترى في الشرق «صورتها

ولكن المؤلف الأصلي لم يشتهر ولم ينتشر في أوروبا الا بعد ظهور الترجمة الفرنسية التي قام بها المستشرق الكبير أنطوان غالان (١٦٤٦ - ١٧١٥) . خلال أسفاره الكثيرة عبر بلاد الشرق ، انتبه غالان الى ذلك العدد الوفير من القصص والحكايات الخرافية والملاحم النثرية والحوار التي كانت تُروى في أسواق ومقاهي وشوارع دمشق والقاهرة وبغداد والبصرة ، وأيضاً حول موافد النار في الأماكن التي تستريح فيها القوافل .

وقد استند غالان في ترجمته التي قام بها للملك لويس الرابع عشر ولحاشيته ، الى عدة مخطوطات عربية ، والى الروايات الشفوية المنقولة من جيل الى جيل وبقدرة فنية مذهلة تمكن من أن يكيّف الشبق الشرقي مع ذوق «العصر الكبير» Le Grand Siècle الذي كانت تعيشه فرنسا آنذاك .

صدرت الترجمة المذكورة عام ١٧٠٤ وعام ١٧١٧ في إثني عشر مجلداً . غير أنها كانت مبتورة الى حد ما ، إذ أنه تم حذف الفقرات والمقاطع المتنافية مع اخلاقية ذلك العصر . ولا عجب في ذلك ، لحكايات الف ليلة وليلة - وهي نتاج مرحلة ازدهار الفكري والفني في عصر العباسيين - قد انسمت بالحرية المطلقة ، وعكست جواً يعبق بالاثارة والشهوانية . وهو ما كان متنافياً مع تلك الرؤية المنمطة والضيقة والديكارتية التي كانت سائدة في فرنسا آنذاك .

يمكن القول أن غالان لم يتم ترجمته ملتزماً بالنصوص الأصلية





مارك شافال : قصة حصان الإيبتولس الثالث .
(الورقة ١٢ من اللوحات الخاصة بالليالي العربية) .



مارك شاعال : قصة السمّان ، جنية البحر وابنها الملك بدر الفارسي (٣) .
(الورقة ٦ من اللوحات الخاصة بالليالي العربية) .

غالان حقّرت آخرين للقيام بنفس العمل . غير أن ترجمة غالان ظلت رغم ذلك الأكثر اتقاناً والأكثر إقناعاً . ومن الأكيد أن أغلبية الشعراء الرومانسيين الأوائل اطلعوا عليها واستلهموا منها تلك العوالم الحارة والعنيفة التي تميزت بها أشعارهم . ولقد قام بين الشاعر الألماني فيلهلم شيلغل Wilhelm Schlegel والرومانسي الانكليزي صامويل تايلور كوليريدج Samuel Taylor Coleridge نقاش حاد حول أصل الف ليلة وليلة ومؤلفها . وانخرط في هذا النقاش مستشرقون مشهورون في ذلك الوقت منهم : يوسف فون هامبروغستال Joseph von Hammer-Purgstall وسلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy وفي ما بعد وليم ليم William Lane . وفي سنوات لاحقة أراد بنيامين دزرائيلي Benjamin Disraeli (١٨٠٤ - ١٨٨١) إصدار طبعة جديدة تتضمن فصلاً من تأليفه .

شهرزاد في إنكلترا :

حاولت إنكلترا خلال العصر الفيكتوري أن تفلت من التزامت والتقاليد الصارمة بالهروب الى عالم بحري ، هو عالم الشرق . وكانت هذه الرغبة في الرحيل باتجاه الشمس والغموض والأحلام بمثابة رد فعل على سيادة العلم والنفعية المادية في عصر التنوير . وقد وجد التحول الاجتماعي والسياسي الذي تم في بداية المجتمع الصناعي نقضه في عالم التخيلات المحض وفي الأساطير . غير أن ذلك التوجه كان نحو اللانهائي والميتافيزيقي والغامض . وعلينا أن ننتظر أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين لكي تدرك أوروبا تلك «الحكمة» السياسية مفهوم هاينريش بل التي تضمنتها قصص وحكايات شهرزاد .

وفي إنكلترا كانت الف ليلة وليلة منبع إلهام الجيل الأول من الشعراء الرومانسيين مثل صامويل تايلور كوليريدج (١٧٧٢ - ١٨٣٤) ووليم وردزورث (١٧٧٠ - ١٨٥٠) ووالتر سكوت (١٧٧١ - ١٨٣٢) وتوماس كارليل (١٧٩٥ - ١٨٨١) والورد بيرون (١٧٧٨ - ١٨٢٤) وتوماس مور (١٧٧٩ - ١٨٥٢) وجون كيتس (١٧٩٥ - ١٨٢١) .

وكان اللورد بيرون من أوائل المستفيدين من الف ليلة وليلة . ويبدو ذلك واضحاً في عمله «الحكايات الشرقية» الذي كتبه

المغايرة» ومبرهاً لأحلامها ولرغباتها المحمومة والمكبوتة ، وقد ألهمت الاغرابية الاستشراقية خيال الرسامين ، وطلّحت بهم بعيداً في ملكة الحلم والسحر . وكانت النتيجة ذلك الاحتفال الصاخب بالألوان لابرار الدهشة والانهار أمام عالم غريب وجذاب : عالم المآذن والمساجد ودور الحرم . وكل ذلك نجده في لوحات ديلاكروا Delacroix ودي كلب Decamps وجيروم Gérôme وأنغرس Ingres وبساورن فاينسد Bauernfeind وديتش Deutsch وآخرين .

إن كتاب الف ليلة وليلة هو الذي شكّل ولا يزال يشكّل «صورة الشرق» . وفي إحدى مقالاته قام جورج لويس بورخس - الكاتب الأرجنتيني الكبير - من خلال منظور سياسي وفلسفي بتحليل ذلك الافتنان بالشرق الذي بلغ أحياناً حدود اللاعقلانية . وهو يرى أن هذا الافتنان يعود الى عنوان الكتاب نفسه والذي يعتبره من أروع العناوين في العالم وهو يقول في هذا الصدد : «الف ليلة وليلة : أريد أن أتوقف عند هذا العنوان . إنه أحد أروع العناوين في العالم ، أروع من عنوان «دون» : تجربة مع الزمن» . ولهذا العنوان اليوم جمال آخر . وأعتقد أن كلمة «الف» لها مرادف «اللانهائي» . وعندما نقول «الف ليلة وليلة» فاننا نعي بذلك لبالي كثيرة لا يمكن عدها . وعندما نقول «الف ليلة وليلة» ، فاننا نضيف ليلة الى الليالي التي لا تنتهي ، ويمكننا أن نتذكر العبارة الانكليزية «أحياناً لكي نقول «الى الأبد» (For ever) نقول «الى الأبد ويوم آخر» (For ever and a day) ، يضاف «يوم» الى كلمة «الى الأبد» . وهذا يذكرنا ببنت هاينريش هاينه Heinrich Heine : «أحبك وإلى الأبد وربما الى أبعد من ذلك !» .

ويعيد بورخس هذا الافتنان العفوي بالشرق أيضاً الى كلمة «الشرق» Orient نفسها. فحين ننطق بهذه الكلمة تتبادر الى أذهاننا كلمة «OR» أي الذهب وكلمة «AURORE» وتعني حمرة الفجر . ذلك أن الشمس حين تبرز تتلون السماء باللون الذهبي كما ورد في جملة دانتي Dante الشهيرة : Dolce color d'oriental Zaffiro .

وقبل أن نستعرض تأثيرات الف ليلة وليلة على الحركة الرومانسية الأوروبية في بداياتها لا بد أن نثير الى أن ترجمة

بنفس أسلوب الرومانسيين الأوائل : رؤية الشرق كأرض كلها مغامرات بحيرة وعواطف جياشة وقسوة غاشية ، أرض «فانتازيا» يسكنها السحرة والمجانين والمخلوقات المتعددة الأشكال والألوان .

وبفضل هذه الرؤية حقق «بيرون» نجاحاً منقطع النظير حتى أنه نصح «توماس مور» بضرورة التركيز على الشرق . وقد أخذ «مور» هذه النصيحة بعين الاعتبار في روايته «لا لا روخ» ملتباً بذلك حاجة قرائه الملتهمين الى الشرق وبالأحرى الى صورته المهيمنة على مخيلتهم منذ عصر النهضة ، صورة مشبعة بالرغبات والخيالات الجامحة . وليس «بيرون» وحده الذي استأثر الشرق بخياله . هناك أيضاً «وليم وردزورث» الذي شارك «كولريديج» في تهيمد الطريق لقيام الحركة الرومانسية في انكلترا حين أصدر مجموعته «أساطير شمزية» . وكان قد تأثر في شبابه بالروايات الشرقية التي كان يسميها «كنز الليالي العربية الرائع» .

أما «والتر سكوت» مؤسس الرواية التاريخية الحديثة في الأدب الانكليزي فينتج في روايات «ويفرلي» و «قصة صاحب البيت» نفس الأسلوب الوثائقي الدقيق «الليالي العربية» . وقد قامت مجلة «بريتيش كريتيك» بتقارنة لروايات سكوت هذه «بالليالي العربية» لأنها حسب رأيها تعطي هي الأخرى صورة صادقة للمعادات والتقاليد الشرقية . وكان صامويل تايلور كولريديج مثل غوته من المعجبين بالأسلوب القصصي لحكايات شهرزاد ويتداخل الأحداث فيها وهو ما ساهم في استنارة ميله الى الظواهر الروحية والمخارقة . وكان كولريديج مثل «هوغو فون هوفنستال Hugo von Hofmannsthal» يحس أثناء قراءة تلك الحكايات بخليط غريب من الخوف الغامض والرغبة النارية والعشق المتوجس . وظل ذلك بلازمه طول حياته . ويرى كولريديج أن قصص شهرزاد شبيهة بالأحلام ، إنها لا تبعدنا عن الواقع ولكنها تعطينا صورة مغايرة له ، تلك الصورة التي لا يقدر على إدراكها العقل ونحن نجد في قصته «البحار القديم» و«الليالي العربية» أن الروح الحاملة تسلم نفسها الى تيارات لا تحصى من الأفكار والأحاسيس والصور المتداعية مثلما يقع في الحلم تماماً أو مثلما الأمر في قصة الأمير أحمد وفي بداية رحلة سندباد

السادة بعد أن غرقت سفينته . خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر كانت انكلترا منبهة بكتاب ألف ليلة وليلة لغرابته وللمناصر الخيالية وللمغامرات الخارقة التي احتواها . أما في العصر الفيكتوري فإن الشعراء والأدباء أقبلوا عليه بسبب قيمته الفنية والأدبية وطريقته الرائعة في وصف الواقع والنفاذ الى دواخل النفس البشرية ولحكمه الفلسفية . ومن المعلوم أن هناك طبقة متوسطة ظهرت في انكلترا بعد احتلالها للهند وبعد توسعها في الشرق وكانت لها مصالح واضحة وملموسة في التعرف على تاريخ تلك المنطقة وعلى شعوبها وعاداتها وأفكارها وهذا ما ساعد كتاب ألف ليلة وليلة على الانتشار بسرعة خارقة في أوساط الأدباء والشعراء في انكلترا .

شهرزاد وأدباء الرومانتيكية الألمان

مثلما حدث في انكلترا ، أثارت حكايات ألف ليلة وليلة أيضاً في ألمانيا في النصف الأخير من القرن الثامن عشر موجة من التوق والحنين الى الشرق . وبسائل فإن معظم أدباء الرومانتيكية الألمان لم يتعرفوا في البداية على كتاب ألف ليلة وليلة الا عن طريق ترجمته الفرنسية التي قام بصياغتها غالان Galland . وقد ظهرت عام ١٧١٠ أول ترجمة ألمانية قام بها تالاندر Talander عن النص الفرنسي لغالان ، وذلك قبل أن ينهي غالان ترجمته الكاملة لآلاف ليلة وليلة Mille et Une Nuits ولم يكن هذا الكتاب الذي يُعد «أكثر كتب القصص الخرافية خطوة في العالم» يعتبر في ألمانيا حينذاك سوى مطالعة للترفيه والتسلية ، كما أن ترجمة غالان غير الكاملة بقيت لفترة طويلة النص الوحيد المتاح . وقد أرجع الكاتب جيورج كريستوف لشتنبرج (١٧٤٢ - ١٧٩٩) Georg Christoph Lichtenberg ذلك التقصير الى افتقار المستشرقين الى الاحساس المرهف . إذ كان من رأيه «أنه يوجد في ألف ليلة وليلة وحكمة مفيدة وعقل سليم أكثر مما يعتقد كثير من الناس الذين يدرسون العربية ، ولو انتبهنا الى هذه الناحية لكان لدينا الآن على الأرجح ترجمات لبقية الأجزاء .» . ولم يعكف المستشرقون الألمان على نقل هذا العمل الأدبي من العربية مباشرة الى الألمانية إلا بعدما صدرت النسخات الكاملة الأولى من الأصل العربي في النصف الأول من القرن

فـيون هـاردنبرج Friedrich Leopold Freiherr von Hardenberg ١٧٧٢ - ١٨٠١ ، وأدبرت فون شاميسو Adelbert von Chamisso (١٧٨١ - ١٨٣١) ، وكليمنز فون برينتانو Clemens von Brentano (١٧٧٨ - ١٨٤٢) ، وهانريش هاينه Heinrich Heine (١٧٩٧ - ١٨٥٦) ، وفيلهلم هاوف Wilhelm Hauff (١٨٠٢ - ١٨٢٧) ، وكريستيان فريدريش هبل Christian Friedrich Hebbel (١٨١٣ - ١٨٦٣) - ولكن على وجه الخصوص أيضاً يوهان فولفجانج فون جوته Johann Wolfgang von Goethe (١٧٤٩ - ١٨٣٢) .

وصف جين بول Jean Paul كتاب الحكايات الخرافية «بأنه الكتاب المفضل ليس فقط للكاتب والفيلسوف الفرنسي مونتسكيو Montesquieu بل أيضاً لكل صديق للشعر الرومانسي». وكتب هردر يقول: «لقد رُفِّعَ كتاب ألف ليلة وليلة عن أكثر من ألف قارئ وقارئ». أما الاخوان جريم فقد تَوَهَّاهُ «بالألوان الوهاجة والجمال المرفف والشذى العطري للخيال المزدهر في صفاء وبالحياة النابضة في كل مكان» .

وقد مهَّد هردر - الذي كان يعتبر اللغة ، والشعر بالذات كأسى صورة للغة ، أكثر الوسائل مباشرة لإظهار جوهر وطبيعة الشعوب والعصور التاريخية - المناخ الأدبي لفترة الغليان والفوران . وقد أشار في «مقالاته حول التاريخ العالمي» Aufsätze zur Universalgeschichte الى المساهمة الاسلامية في الثقافة العالمية ، بعدما اشغل لفترة طويلة بالأدب الشرقي . كان العرب في رأيه «معلمي أوروبا» . وفي سعي الانسان للبحث عن الاخلاقية والانسانية العامة اكتشف الآثار الأدبية للشعوب الأخرى - وعلى وجه الخصوص أعمار العرب والفارسيين . والسبب في ذلك - كما يقول فولفديترش فيشر Fischer في مقال له تحت عنوان «لقاء مع أدب الشعوب الاسلامية في أوروبا» - Begegnung mit der Li- teratur der islamischen Völker in Europa هو أنه «في الشعر تتجلى الانسانية بأسمى صورها التي ارتقت اليها الحضارة الخاصة بها» . وكتب يوهان جيورج هامان Johann Georg Hamann يقول : «الشعر هو اللغة الأم للجنس البشري» . وقد انهك يوهان جوتفريد هردر في دراسة اللغة والأدب الشرقية على نحو قلما فعله أحد غيره .

التاسع عشر (النسخة الأولى المطبوعة في كلكتا عام ١٨١٤ ، والنسخة المصرية المطبوعة في بولاق) . وقد بين يوسف فون هامر - بورجستال - الأستاذ العتيد للدراسات العربية الالمانية - ودافع جهده الشديد في إعداد ترجمة ألمانية لهذا العمل الأدبي بأكله على النحو التالي : «من هذه الحكايات نتعرف على العرب أنفسهم : تحت خيام البادية وفي بلاط الحليفة ومع القوافل الراحلة وفي داخل مقصورة الحرم» . وقد قام فريدريش روكرت Friedrich Rückert (١٧٨٨ - ١٨٦٦) ، الذي استُدعي عام ١٨٢٦ لتولي منصب أستاذ اللغات الشرقية بجامعة إرلانغن ، هو أيضاً باقتباس حوافر فكرية أو أحداث عديدة من ألف ليلة وليلة في كتاباته وقصائده ، كحكاية الضرر «بابا عبد الله» على سبيل المثال .

وقد كان روكرت هو الشاعر الالماني الوحيد الذي له إتصال مباشر بالأصل العربي لآلف ليلة وليلة . وقد قدّم واحداً من المداخل الرائدة الى الثقافة والتاريخ الاسلاي في مجموعاته الأدبية «مباهج وتأمّلات من الشرق» Erbauliches und Beschauliches aus dem Morgenland ، و«سبعة كتب أساطير وحكايات من الشرق» Sieben Bücher morgenlän- discher Sagen und Geschichten . بيد أن روكرت كان شاعراً أكثر منه عالماً . وقد ذاع صيته في ألمانيا على الأخص من خلال ترجمته للشعر العربي القديم . وقد شُبِّدَت ترجماته الحرة «لمقامات الحريري» ، و «الأشعار الغزل» للمتصوف جلال الدين الرومي ، ولأجزاء كثيرة من «جولستان» Gulistan لسعادي أسس تقاليد الترجمة الشعرية المبدعة في ألمانيا لقصائده من مناهل الأُدب الكلاسيكي العربي والفارسي .

ولقد كان لكتاب ألف ليلة وليلة ، كتاب السحر من الشرق ، تأثير بحري بوجه خاص على شراء فترة «الغليان والفوران» Sturm und Drang وعلى شعراء ، مثل : لشتنبرج Lichtenberg ، ويوهان جوتفريد هردر Johann Gottfried Herder (١٧٤٤ - ١٨٠٣) ، والأخوين فون شليجل Schlegel (أوجست فيلهلم ١٧٦٧ - ١٨٤٥ وفريدريش ١٧٧٢ - ١٨٣٩) ، والأخوين جريم Gebrüder Grimm (ياكوب ١٧٨٥ - ١٨٦٣ وفيلهلم ١٧٨٦ - ١٨٥٩) ، ونوفاليس Novalis (واسمه الحقيقي فريدريش ليوبولد فراير

وقد أثار اشتغال هردر بالشعر العربي الإسباني إعجابه الشديد بالثقافة العربية الإسلامية . كان هردر مقتنعاً بأن الشعر الوجداني الهروفاوسي نابع - بصورة مباشرة أو غير مباشرة - من الشعر العربي . وكان يؤمن بالرأي الذي يقول أن البواعت الأولى لحركة التنوير العقلي في أوروبا ترجع إلى الاحتكاك مع الحضارة العربية في صقلية وإسبانيا . وفي عمله أدراسيا Adrastia ، وهو مقالات عن الأدب أعجزها هردر في الأعوام ١٨٠١ - ١٨٠٣ يدون هردر ما يلي : « اللهم جنبنا الويال الذي يوجه الأمور على نحو غريب ، ولا تحرم قارتنا الأوروبية أبداً من السنين الاثنين للعالم شرقه وجنوبه ، ألا وهما اللغتان العربية والفارسية » .

كان جوته على العكس من ذلك أثناء إنشغاله بآداب الشرق متنسكاً بعقلية زمن قد ولى وإنصرم - أي بالموقف الكلاسيكي الذي رفع مكانة الشرق كسخر سرمدي . لقد كان جوته في مراحل إنتاجه الأدبي المختلفة معنياً دائماً وأبداً بالشرق . وقد دفعته دراسة القرآن الكريم إلى الاهتمام بالاسلام وبسيرة محمد . ومن المرجح أن تكون رواية فولتير Voltairre الدرامية «محمد» قد ألهمت جوته أن يكتب هو الآخر قصة درامية عن محمد ، بيد أنها بقيت لألسف أجزاء متناثرة . وقام جوته نفسه بترجمة بعض آيات القرآن الكريم عن ترجمة لاتينية لماركيوس . وترجع رواية أدب الرعاة الزكوكية «نزوة العاشقين» وكذلك شخصية الحلاق في رواية Wilhelm Meisters Wanderjahre بلا ريب إلى إلهامات فكرية استلهمها جوته من الف ليلة وليلة . ومن المحتمل أيضاً أن تكون مطالعته لمجموعة الحكايات الخرافية وقربه من هردر قد استثارت إهتمامه بالشعر العربي الكلاسيكي . غير أن جوته لم يعكف على الدراسة العميقة لالف ليلة وليلة إلا في الفترة ما بين عامي ١٨١٤ - ١٨١٩ ، أي أثناء تأليفه لروايته الشعرية «الديوان الشرقي - الغربي» التي أنصبت فيها كل الإلهامات التي استلهمها جوته من شعر الشرق ومن القرآن الكريم ومن المملكات ومن أبيات شعر جلال الدين الرومي وفريد الدين العطار ، وكذلك من حكايات الف ليلة وليلة .

ذكرت كاتارينا مومزن Katharina Mommsen ، الأستاذة المتخصصة في دراسة جوته ، في كتابها «جوته و الف ليلة وليلة» ما يلي : «سوف ينبغي للحقيقة الآتية أن تظل دائماً

مدعاة للاستغراب ، وهي أن يحدث في القرن الثامن عشر بالذات ، قرن التنوير والفلسفة العقلية وذوق التقليد للطراز الكلاسيكي ، استيعاب وتقبل آلاف ليلة وليلة يمثل ذلك القدر من الترحاب والامتنان . غير أنه من المحتمل أن يكون العكس هو الأقرب للصحة ، أي أن التنوير بالذات تحركة لتحرير الأنماط الفكرية والتصورات الاخلاقية الماثورة والمحددة بالطابع الديني قد خلق بتوجه نحو العقلانية والشمولية والعالمية الأسباب الحقيقية لانفتاح الأوروبيين الذهني تجاه القيم الفكرية للشرق » . وفي باكورة أعماله الأدبية التي اتسمت بالطابع الكلاسيكي يختلف جوته عن بقية أقرانه من أدباء الرومانتيكية ، ذلك أنهم كانوا لا يبحثون في سحر الاستقلال الذاتي لحياة الفكرية الذي إنطلق من معاقله عما هو صحيح بصفة عامة ، بل كانوا يبتغون الغريب والعجيب والشاذ المثير للسخرية . الإبداع الفكري والأصالة ، والموهبة على المعاشية القوية المباشرة للظروف ، والقدر على الإفصاح التعبير ، كل تلك الأمور كانت بالنسبة لهم المقاييس الجديدة للشعر الأصلي . غير أنه في الواقع لم يُنحَ للشعر الأصل أن يتطور ويتقدم إلا عن طريق التضافر والتنمية المتألفة لجميع الطاقات البشرية - وليست فقط للطاقات العقلية منها كما كان يرى هؤلاء الأدباء .

ولم يحظى في التلاقي مع ذلك التيار العصري كتابُ بنفس المنزل التي ارتقت إليها ملحمة القصص الخرافية من الشرق التي طالما استلهم من كنوزها الفكرية الجمّة أدباء الرومانتيكية الألمان الكثير من الإلهامات والتحفيّزات الفكرية : فعلى سبيل المثال كان إنشغال أوجست فون بلاتين Platen (١٧٩١ - ١٨٣٥) بدراسة الف ليلة وليلة حافزاً له على نظم ديوانه الشعري «العباسيون» (الذي ظهر عام ١٨٣٣) وعلى تأليف كتاب «الغزل الشرقي» . ونقل فيلهلم هاوف - الذي تأثر بفالتر سكوت Scott تأثراً شديداً - غالبية قصصه المشهورة إلى عالم «أبسطة الريح الطائرة» و«القلق خالف» . وبالمثل فإن إنتاج فريدريش هبل الأدبي «روبين» قد نشأ تحت تأثير «أعني كتاب صور في العالم» - والذي ساهم هرمان هسه Hesse (١٨٧٧ - ١٩٦٢) فيها بعد «مجموعة الحكايات الخرافية Märchensammlung» . وارتبط فيلاند Wieland في كثير من أعماله الأدبية بالف ليلة وليلة ، ومن

أمثلتها : Hann und , Wintermärchen , Goldener Spiegel ، وتذكرنا تراجيديا هاينريش هاينه « المنصور » Gulpenheh . باسبانيا الاسلامية ، أي بذلك العصر الذي تم خلاله في بلاطات الخلفاء في قرطبة وغرناطة واشبيلية أروع تكافؤ ثقافي بين الشرق والغرب .

الانتقال الى الواقعية

لقد كان إرنست تيودور أماديوس هوفمان E. T. A. Hoffmann مؤلف القصص الخرافية السرايوني العظيم - يقف فعلاً على العتبة الفاصلة بين الرومانتيكية المتأخرة والواقعية . كانت حياة هوفمان وأعماله متممة بطابع تلك الفلسفة الثنائية بين ما هو واقعي واضح وما هو مبهم غامض . وقد أشاع هذا «الواقعي الخيالي» الذي كان يؤيد الوحدة بين الفن والحياة ، تلك الثنائية في فنه وحياته على حد سواء . وهكذا فقد كان يكتب هذا الانسان العنيد الذي كان يعمل مستشاراً لحكمة الاستئناف البروسية الملكية قصصه الخرافية الغريبة أثناء فترة عمله الرسمية ، بدلاً من أن يغزل الملفات بالفتاوى القانونية ، تلك القصص التي يذكرنا بحرها بأجواء ألف ليلة وليلة . وقد كان يتقن على نحو لم يضاهيه فيه أحد تصوير الجوانب المظلمة للكيان الانساني وهبوط المعجزات على الحياة الواقعية وتحويل العالم الطبيعي الى عالم ما وراء الطبيعة - على نحو ما فعل على سبيل المثال عند تحويله أرشيفاريوس لندهورست A. Lindhorst الى صقر طائر في نوبة الرقابة الليلية العسكرية الرابعة في قصته الخرافية «القدر الذهبي» Goldener Topf . وكذلك في قصته الخرافية «إلكسر الشيطان» وفي «إخوة سراييون» Serapiensbrüder أثبت هوفمان أنه تلميذ نجيب شهرزاد التي تواتحت في حكاياتها الليلية أيضاً أحداث مليئة بالأسباح ومثيرة للعجب ، واقعية وخيالية . وقد قابل هذه الثنائية في مستويات الأحداث عند هوفمان أيضاً إزدواج لمسارح الأحداث ؛ وهكذا فقد دارت أحداث قصصه في أتلانتس وفي دريسدن ، في برلين وفي جنسنتان في نفس الوقت .

وعلى نحو مشابه لشارلز ديكنز Charles Dickens استمر هوفمان في تطوير العناصر الواقعية للرومانتيكية المتأخرة ،

ومهد بذلك للواقعيين النافذين في القرن التاسع عشر الطريق الى عصر جديد من تاريخ الأدب كان بمثابة الحاتمة للحركة الرومانسية .

بفضل الحركة الرومانسية أصبحت حكايات شهرزاد مشهورة في أوروبا بين عشية وضحاها : السندباد البحار ، علي بابا والأربعون حرامي ، مصباح علاء الدين المسحور ، قصص هارون الرشيد وأبي الحسن ، ابن التاجر من عُمان ، كل هذه القصص وغيرها الكثير دأب على اختطاف أجيال من الأوروبيين مراراً وتكراراً الى مملكة السحر للخيال الشرقي . وفي حين أن ألف ليلة وليلة ولبلة إعتبرت من وجهة نظر الأوروبيين على أنها التحفة الفنية الرائعة لأدب القصة العربية على الإطلاق ، فإن هذا العمل الأدبي لم يحظى في العالم العربي نفسه باهتمام يذكر رداً من الدهر . فقد كان المؤرخون والأدباء العرب يعتبرون حكايات شهرزاد من أدب التسلية بالنسبة للدهان من الناس . ولم يشرع الأدباء في العالم العربي أيضاً ينظرون الى هذه الملحة الشعبية العظيمة بعين الاعتبار إلا بفضل الاهتمام غير العادي الذي حظيت به في أوروبا . وفي لحظة كان فيها الأدب العربي وقتئذ واقعاً تحت تأثير أوروبا يبحث لنفسه عن صور تعبيرية جديدة ، وإلهام فيها أسطورة الأدب العربي «الكلاسيكي الراقي» أمام مقاومة جيل فني مكافئ من «الشعراء الأحرار» بدأ المرء في العالم العربي يرجع الى تراثه الثقافي الذاتي ويتبصر في تقاليده الشعرية الخاصة به ، التي تم تناقلها منذ زمن هارون الرشيد محفوظة في الذاكرة - أي محفوظة في القصص الخرافية والحكايات التي تروها الشعوب الشرقية . وفي غضون هذه العملية من التأمل في الماضي وجد أيضاً كتاب شهرزاد الذي لا حدود لعطائه الفني مكانة اللائق به بجزء من الأدب العربي ومدخل الى أروقة العلم والى معبر التراث الثقافي .

لقد فتن الشعر والخيال العربي شعراء الغرب واستهواهم ما ينوف عن القرنين من الزمان .

لقد كان هذا الشعر والخيال ملاذاً لمجتمع تسيطر عليه العقلانية سيطرة كاملة .

وما أن أوروبا نفسها قد اندفعت الآن الى حدود التطور الاقتصادي التقني - وخلص أيضاً «العالم السلام» للشرق منذ

زمن من سحره بسبب وسائل الإعلام وتطور العلم ويراك
السياحة - فأننا نقب الآن عن «فانتازيا» جديدة، عن
«قصص لاتينية» على أدياء الرومانتيكية الألمان كما فعل

هو جو فون هوفنزال

كان هذا الكتاب في حوزة أديبنا لما كنا صبية، وعندما بلغنا العشرين واعتقدنا أننا قد شئينا عن الطوق وأنشأنا عن طور الطفولة وتناولنا في يدنا مرة أخرى، وعاد بأسر خيالنا من جديد - لنُشد ما شئنا ! في ضياء قلبنا وفي غزلة روحنا ألقينا أنفسنا في مدينة كبيرة جداً مقسمة بالأسرار منثرة بالهياكل مليئة بالفريات- مثل بغداد والبصرة . كتبت الفريات والتهديدات تخرج على نحو غريب ؛ كما نحس بالرهبة في القلب والبالغة، كما نرتاع من الوشحة في أعناقنا ومن الضياغ، ومع ذلك فقد كانت تدعنا جسارة وعلفة قُدماً في طريق ملء بالمناجات، دافئتين وجوه - بين احتمالات وثروات وروائح عبققة ونسختنا وفي ملقنة وأبواب نصف مفتوحة ونظرات تواردة شمريرة في السوق الماخذلة التي تحيط بنا ؛ كيف كنا تنقص شخصية هذا الأمير الذي هُمل سبيله بعيداً عن وطنه، أو ذلك الآن لأحد التجار الذي مات أبوه والذي استسلم لغفريات الحياة، كيف كنا نتخيل أننا نلتهم !

ها نحن الآن أضحينا رجالاً، وهذا الكتاب يطالعنا للمرة الثالثة وأن لنا الآن أن تفككه حقيقياً، ما وبأجناس سابقاً كان معالجته وترديداً لتهكمات من الذاكرة ؛ ومن ذا من يستطيع أن يطلع وسد شعيرة متكاملة دون أن يفضح أخيراً ما تخفكه من رونق وأحلى ما تخويه من قوّة ؟ إنها ليست مجرد مغازات وأحداث، بل إنها عالم شيرلي - كيف يكون حالنا لو أننا لم نعرف هوميروس Homer إلا عن طريق الأعادة لنقص معماراته من الذاكرة ؟

هنا يتعلق الأمر بقصيدة إيتريك في نظمها بل ربأ أكثر من واحد ؛ يبدأ أيديو كالو كانت قد نبعت من نفس واحدة، إنها وحدة متكاملة، إنها عالم من كافة الوجود . وبأية عالم . قد يبدو هوميروس في بعض الحالات بالقياس إلى ذلك عدم اللون وغير ساذج . هنا يوجد تمدد ألوان ويُنشد غُزُر، فيض خيال وحكمة كونية فائقة ؛ هنا توجد وفائغ لا نهاية لها وأحلام ؛ أقوال حكيمية ، أفأكيه ، تجاوزات لشعرة ، أسرار ؛ هنا تتوَجَّع أبسل صور الروحية مع أرقى مظاهر الثبولانية في وحدة واحدة . إنه ليس بالشعور في أعناقنا الذي لا ينبغي لسه أن يتيقظ ؛ كل ما في أعناقنا يذب فيه ديبب الحياة ويُسْتدعى للاستناج إليه .

إن قصص خرافية تلو قصص خرافية، وهي تنسب إلى حد السجاسة، إلى حد السيف ؛ أنها مغامرات وأفأكيه أو أضحيت غريبة شعبية، وهي تصل إلى حد القرابة ؛ إلى حد الحياة . غير أنه في جو هذه الأمور كلها لا تكون السجاسة شوهاء ولا الفاتحة خبيسة ولا يكون لكل إلا رافعا ؛ شوباً سامية كاملة تجمع الكل . إنها في هذه القصيدة مثلما الضوء في صور ديمرلاندت، مثلما اللون على لوحات تيزيان Tizian . نحن نتمسك من اسمي عالم إلى أحسن عالم ، من الخلفية إلى الحلاق ، من الصائد الرقيق الحال إلى السيد الثري للمستلج بالتجارة - إنها إنسانية تلك التي تحيط بنا ، نرفعا ونعملا بوجه عريضة رقيقة ؛ نحن نحن أشباح ، بين سحرة وعفاريت ونحس مرة أخرى بأننا بين أهليتنا . وكما أطلنا القرادة ، كما استسلمنا يمتد إلى هذا العالم ، تنوره في وسط أكثر الشعر سذاجة وإلياً ، الذي يفضي بنا إلى السنج الحلق - إنه هذه اللغة لا تُسَمَل من أجل التجريدية ؟ كهاثا الانتغالية وكهاثا الأديبة كهاثا أولية ، تمصافة ، حياة أبوية شواء ، عمل ومارسة بدوية عصى ، حالات خالصة شمولية جبارة حيوية وساذجة ، موضوعة بلا مبالاة وبفوق . نحن هنا نؤمن عن مثل هذا العالم بما يحيط به من أوضاع ، وبغداد والبصرة ليستنا قلم غياح الأديب . لا يُسَمَل من عالم أرفع عظم ، لا إلى الأمر لا يدعون أن يكون شيئاً بالفتن خلال المسام ، بيد أننا ننفض خلال مسام هذه اللغة الشاعرية

هو جو فون هوفنزال Hugo von Hofmannsthal في مقدمته
للنسخة الكاملة من الف ليلة وليلة التي قام بترجمتها إينو
ليتان . ونورد في المقال التالي خلاصة لتلك المقدمة .

الساذجة نسج عالم قديم من قديم الأزول ، نسج في أوجاهة الملائكة والشياطين ، وتكون فيه حيوانات الغابة والصحراء شبيهة بالآلهة الشيوخ والبنات . وهكذا لا يكون نادراً أن يندو السمع والتفصيل ، بل والشعيرة فائقة نظراً أننا نُحَلِّق من خلالها على عالم أجياد شير بغموض ، أجل على أسرار أعظم مخلوقة .

في الوقت ذاته ينتسج الكل بروحانية شعيرة تتفانى بما يأسد الشغف منذ أن نبداً الإدراك الحسي إلى أن تصل إلى الفهم الكامل . شعور داخلي بالله ووجود له يُنْشَر كل هذه الأشياء الحسية ويُجَل عن الوصف . وفوق هذا المجمع من الإنسانية والحيوانية والنباتية يتبدد دوماً فوق السواء الشمسي الساطع أو تتراعى أطراف السواء المقدسة المرصعة بالنجوم . وكسب قوي زكي عليل تهبّ خلال كل شيء المشاعر الطاهرة البسيطة الأبدية والمخلوقة والتشوق والوقاء في الحب .

ولكن نطالع صفحة من ألف صفحة ، هنا كة ما من قصة على شار والرمز الرقية ، وهي لحة لا أول لا ستمش عن باي نص بدعي في أعظم كتبنا وقاراً . ومضمون القصة يكاد يكون لا شيء . الحب يبدو أن يخلص عبيرته التي اغتلبها منه روح عبوزة شمريرة . وقد استكشفنا البيت المأجورة فيه حببيته ، ويتوادلان منتصف الليل تحت الشباك ، وقد التقيا على إشارة معينة ما كان عليه إلا أن يعطيلها ، غير أنه كان عليه أن ينظر إليه أخرى قصيرة . وهنا يتخفى نوم عريق في غير وقته المناسب ولا يمكن مقاومته ، كأنما قد باغته القضاء والقدر من الظلام مثلاً شركته . «وهالكاً غلّة العمارن» ، كما يقول النص «دوراح في سيات عريق - عجيب هو ، هو الذي ما كانت تمنض له عين أبداً» . إنني لست أدري أي مقطع من هوميروس أو دانتة أود أن أضعها المقارنة بجانب هذه الأسطر : هكذا من اللاشيء إلى مغامرة معتقلة الأحداث تتجلى رحمة الله مثل القمر عندما يبرغ فوق حافة السواء ؛ ولكن ما عسانا أن نقول عن أقوال الحكمة على أسنة الطيور والحيوانات الأخرى ، وعن الإجابات العميقة المغزى للعداري الساحرات وعن الأقوال المأثورة والحقايق التي تمس شغاف القلب ، التي كان يصبها آباء على فراش الموت وملوك حكام شبيبتون في آذان الشباب ، وعن الحوار الذي لا ينضب معيّن الذي كان الماشقون يتبخون به عن أنفسهم معاذتهم وعبه يهايمهم على حد سواء ، يرفعونه عن كاهلهم ، يبدونهم إلى الوجود . ومثلما كانوا يطهرون سعادتهم بأن يعيرون عنها بأقوال الشعراء أو بكلمات الكتب المقدسة ، كان السعي يرفع عن نفسه وجُله والشحاذ غوزة ، والظان عطله . ومثلما تكون الكلمات الطاهرة الدوارة للفرار متروكة في كل لسان ، مثل الهواي يكون لكل فرد نصيب فيه ، تكون الرقيلة متروكة من الكل أحياناً فوق آلاف من المصار المتشابهة تحلق إيديتهم في نفاة وحرية مُنْضَح عنها بتلكات خالدة الجمال باقية على الدهر .

هذه المنامرات التي يتل كل مضمونها تعطلات دنوبية إلى أقصى حد ومماناة مبهمة وعمدة مطلقة ، لا تظهر هناك إلا من أجل القصائد السامية التي ترفرف فوقها - ولكن ما قيمة هذه الصفاة وما قيمتها بالنسبة لنا لو أنها لم تكن نابعة من عالم زاخر بالحياة ؟

خالداً على مر الزمن هذا العالم الزاخر بالحياة والمُعمَّم بمسرة لاتينية ، بمسرة جياشة طفولية لا تحموح الألام ، تتشكك تلك البلا نظام وقصل الكلب بعضه إلى بعض ؛ الحسنة إلى الصياد وبق الحلال ، الحياضات إلى المراءد العبداء ، سيدها الحسن والجمال إلى اللشوق الأحدث ، جسداً إلى جسد ، وروحاً إلى روح .

رحيل هاينريش بل ، حامل جائزة نوبل للآداب

وفاة مرجع

هاينريش بل : شاعر ، واعظ ، مادي ، وحام

آلام ألمانيا بعد الحرب

صحيح أن الالمان الذين بدأوا الحرب وان هترو هو أول من بدأ بقتل المدن . لقد رأيت مدينة «اميان» Amiens الواقعة في شمال فرنسا مدمرة تماما . ولكن ما لا يريد أن يفهمه الكثيرون ، هو أن الناس - فاشيون أو غير فاشيين - قد تأكلوا كثيرا في مثل تلك الظروف . إنهم عاشوا - رغم الازعاج النازي البشع - الفترة الأشد قسوة ، تلك التي امتدت من يوليو (توز) ١٩٤٤ الى نهاية الحرب ، وتكونوا في نفس الوقت من الرقص والشرب ومن مضاجعة النساء . والامتناع بأفراح متواضعة محدودة .

ما هو الالتزام ؟

إن كل كاتب عصامي بالمعنى ، وحتى إن كان إنساناً مثقفاً ثقافة عالية ، فهو عصامي بالضرورة . . . إن الجدل الدائم حول الشكل والمضمون وحول الالتزام والالتزام يدعو للقلق الشديد . والألم هو التعبير بمدى عن وسط أو عن مشكلة أو عن عالم معين دون الالتزام بالمشكلة البورجوازية من حيث الشكل . وبالغالب يجب التأكيد على أنه لا يمكن أن يطغي الهنوي وحده قيمة للعمل الأدبي .

الثقافة ليست وحدها المجدبة بالنسبة للكاتب

إن كل كاتب عصامي بالضرورة . وأريد أن أؤكد على ذلك لأن هناك أساندة متفقون جداً وحاملو شهادات عالية ، إننا ليسوا قادرين على الكتابة ، كما يتمتع عليهم أحياناً تبريح أقلامهم . ومن المؤكد بأن الشهادات الجامعية التي حصلوا عليها تعفيهم كلياً عن إداء ذلك . ويشهد تاريخ الابداع دوماً بأن الثقافة ليست وحدها المجدبة بالنسبة للكاتب .

الأولى «Das Brot der frühen Jahre» . فكل ما يكتبه «بل» يصدر عن طبع رقيق . حتى عندما يكره . إذ أن «بل» ، مثل كل مسيحي حقيقي ، كان يعرف أيضاً أن يكره ، حتى عندما تقدم به العمر وأصبح أكثر ليناً . وقد كان يوجه تلك «الكراهية» الى الذين حادوا عن الصواب ، ولكنه لم يظفر أبداً تكبراً أو شجاعة نخوم ، بل شفقة بالأحرى . إنه الموقف نفسه الذي عرفناه عند ذلك المادي العظيم الآخر في الأدب الألماني ، ذلك الملوخ بسيدته برجاء ، أعني برتولد برشت Bertolt Brecht .

هذا التشبيه يبدو وكأنه ينطوي على كثير من المغامرة والتعسف ، لكن «بل» كان يقبله بأقصى الجدية . فقد كتب في إحدى رسائله الرائعة الأخيرة :

«أعترف أنني لم أطلع على معظم ما قيل في أو ما كتب وصوّر عني - وذلك ، ببساطة ، لأنني لا أريد أن أنفعل كثيراً بنفسي ، ولا أريد أن أقع كليا في المرض الذي أصاب عصرنا ، أعني الموت بالأننا . فهذا القدر من الجاه والشهرة قد يسبب بسهولة

في السادس عشر من يوليو (توز) ١٩٨٥ توفي الكاتب الألماني هاينريش بل Heinrich Böll ، حامل جائزة نوبل للآداب ، وكان ذلك في بيت ابنه في بوننهايم Bornheim قرب بون Bonn وبعد عملية جراحية في الرأية الدموية .

وهاينريش بل ، الذي نشرته آخر رواية له (نساء أمام منظر نهري Frauen vor Flußlandschaft) بعد وفاته بقليل ، بدأ الكتابة سنة ١٩٤٩ بعد أن كان أجبر حرب لدى الأمريكيين . وألم ما طبع وقتها بقليل ، بدأ أعماله الأدبية تلك التجربة التي مر بها إيان الحرب العالمية الثانية وموقفه النقدي من الأوضاع التي بدأت في ألمانيا بعد الحرب . وقد ظل هاينريش بل لثلاثة عقود مواكباً لتاريخ ما بعد الحرب في ألمانيا الغربية نقداً وإبداعاً واستمرارية لم يُعرف لها نظير لدى كاتب معاصر غيره . كذلك فإن التزامه العميق بالفضايا الفكرية والأخلاقية جعل منه مثلاً فكرياً وروحياً للشعب ، الذي كان «بل» يكتب بلغته ، كما جعل منه ما يشبه «ضهير الأمة» .

هذا الدور الكبير الذي لعبه أكسبه احتراماً وعبية عظيمين ، وبالأخص في الخارج . وفي الوقت نفسه ألب عليه الأعداء في وطنه البذات . والمغرب بالذكر أن هاينريش بل هو من المعاصرين الآن للقتال - إلى جانب زميله وصديقه غونتر غراس Günter Grass الذين رحلت بعض أعاليهم إلى العربية .

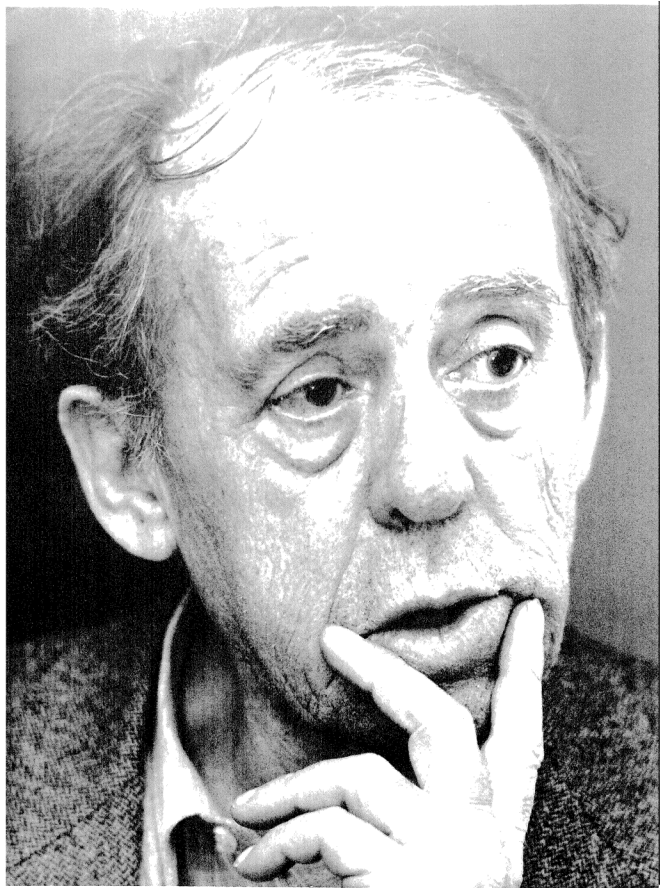
يقوم في الغالب الثاني الناقد الألماني غريش وادنتز Fritz Raddatz حياً هاينريش بل وأعماله الأدبية .

ويودع ذلك أن توفي القراء بعض أيقول «بل» الغالة التي وردت في المقابلة المطبوعة التي أجراها معه رنسي فينتزن René Wintzen والتي نشرت في كتاب صدر عام ١٩٧٨ عن دار «العقبة» (النائي) في باريس تحت عنوان : الفائرة الألمانية .

لقد كان بل Böll ما كره أن يكون : ضهير الأمة . وتلك «عبارة قتالة» ، كما كان يسميها . وكان ، في الوقت ذاته ، يقول عن نفسه : «إخايل أنني لم أعرف بعد ، فأنا أقدر دائماً أقل من قدري ، وأحياناً فوق ما أستحق .»

كيف يمكن لهذه الأمور أن تأتلف ؟ وبكلام آخر : هل ينطوي هذا التناقض على سر «هاينريش بل» ؟ فقد كان للرجل سر تتبع منه سلطته . وفي غرة صدمتنا الحاضرة تجاه وفاته المبكرة ، عن سبعة وستين عاماً ، يمكننا أن نؤكد : إن سره كان الحب .

كان هاينريش بل Heinrich Böll يحب الناس . سواء كان ذلك في تمنياته الثرية الفريدة ، مثل (ليس في عيد الميلاد فقط «Nicht nur zur Weihnachtszeit») أو في نخوص رواياته الكبيرة : «آدم» (في «أين كنت يا آدم ؟» Wo warst Du, Adam?) و «ليني (في «صورة جماعية مع سيدة» Gruppen- bild mit Dame) و «شتر» المهرج (في «نظرات مهرج Ansichten eines Clowns) و «هيدفيك» (في «خبر السنوات



في مرفأ يوناني صغير حين فاجأته أنباء حصوله على جائزة نوبل . فالذين يُعْثَوْنَ قناتين مغلقتين كباراً في أدب ما بعد الحرب العالمية الثانية هم بالاحرى باول سيلان Paul Celan أو أرنو شميت Arno Schmidt أو أوفه جونسون Uwe Johnson . أما «بل» فقد اعترف له بدور الاخباري الناقد الذي يؤرخ وقائع الجمهورية الاتحادية ، وبدور المراسل من بلد الجوع وإعادة البناء ، بلد المعجزة الاقتصادية وإعادة التسلح ، وأخيراً بلد قاعدة البرشنغ Persching التي تظاهر ضدها في موتلانغن Mutlangen هذا الحامل لجائزة نوبل . لقد كان «هاينريش بل» بلزاك الجمهورية الألمانية الثانية . فكما أن هذا زَمَنُ مجتمع المقتع في مملكة البورجوازية ، فإن «بل» أخرج لنا مشهد الرقعة الهائلة لعمالقة التكالب على الإثراء بعد الحرب الثانية .

هذا هو المفهوم الأصح لفن «هاينريش بل» : إنه مُخْرِج . إنه لا يخترع ، بل يجد . إن مادته مركبة مما هو موجود أو متذكّر . رواياته وأقاصيصه تخيم من حافظ معين . وذلك ليس بحثاً عن الزمن الضائع ، بل عن الزمن المخون . الزمن : إنه ما فعلنا . فهو ليس مقولة نفسانية ، بل تاريخية . و«بل» يرى أن بشرية بلا ذكرى هي كابوس ، لفقدانها الحسن التاريخي . وهكذا ، عندما قيل له في مقابلة : «أنت لا تفهم الكتابة سيرة ذاتية بقدر ما تفهمها سيرة ، أي مشاركة في التاريخ المعاصر» ، أجاب بكلمة واحدة : «نعم» .

«هاينريش بل» ليس كاتباً سيكولوجياً ، ورغم روعة نثره ، فهو ليس من أصحاب الرهافة الأسلوبية . إنه متظاهر ، فهو ، عبر أسئلته ، يعرض ضروب الاعوجاج والظلمة ، كما يعرض شراتر الأمل الضئيلة ، قوة كتيبه ليست متناصلة في سيره اللبي الفردية أو في خلفه القدرَ الفردي العميق الأغوار ، بل في البهران المتكرر على أن المجتمع هو الذي يدفع الفرد الى حافة الهاوية ويرى أن الفرد هو الوجود الآم بعينه . «الفرد» عبارة عن شتيمة في الاستعمال اللغوي الألماني . بطلته ليني Leni ليست مدام بوفاري Madame Bovary ، إنها بالأحرى «الأم الشجاعة Mutter Courage المعاصرة : ليست شخصاً يستحق شفقتنا ، وإنما هي شخصية تعرض علينا الحراب الذي أزله بها الزمن .

وهكذا نراه ، حتى في مقال عن توما الاكويبي ، يستعمل هذه التقنية الدراسية في التظاهر التالي : «كم أود لو أسأل واحداً مثل توما الاكويبي : عن القنابل الذرية ، عن التسليح وعن

مَسْأَلَة الجنون . . إنك على حق فيما يتعلق بعبارة «مادي» ، غير أنه علينا أن نحدد مفهومنا للمادة : فاللغة مادية . كذلك فالكائن الذي نسميه الله أصبح مادياً . أي بشراً بالتحديد (هذا في مفهوم «بل» المسيحي) . كما أن ما يتبادله العاشقون مادي أيضاً . لا شك أن هناك أوجه شبه برشت ، أكثر مما يعتقد بعض المدمنين على برشت وما يستطيعون ادراكه . غير أني لست بورجوازي ، ولا من أصل بورجوازي ، بل أنا مزيج من البروليتاريا والبوهيمية والبورجوازية الصغيرة . «إني تمب ، يا عزيزي ، مريض ومنهوك . لا أقوم بأعمال العادية إلا بمشقة . النهوض صباحاً يبدو لي صعباً ، ومع ذلك أنض : إني حشاً أقف على رجلي» . فلا تنس أني مُلْتَمَح بالميافيزيقا - لا أدري متى وبواسطة من . كان يمكن لبرشت أن يتفهم هذا .

في موسكو قال لي أحد الأذكيا الروس الكثيرين (وهو ما يزال حياً) : - كان برشت آخر الكاثوليك ، وأنت قد تكون أول الكتاب البروليتاريين - . وفي هذا الكلام بعض الحقيقة . أما في بلدنا ، فإن المجالات الاخلاقية والاجمالية والسياسية لما تزل منفصلة جداً بعضها عن بعض .»

واليوم ، بعد وفاته ، نقرأ تلك الرسالة وكأنما هي سيرة ذاتية ووصية في آن معاً . فهي تنظم كل العناصر التي تكونت منها أعمال كاتب عظيم : تدوين دينوي غريب ، ميثافيزيقا علمانية كلياً ، قرب شديد من الشعب ، وأهتام مطرد بالقضايا العامة التي لم يكن يتطفل عليها ، بل كان ملزماً بها ، ثم الصرامة النابعة من وجدان حي .

من هنا قوة الاشعاع في أدبه ، فهو أدب يحتوي على شيء يتوَلَد من أمي الروح ، كما سماه مرة ، وتتطوي عليه أعمال مؤلفين قليلين : تلك الجزرية (الرايكلية) الذرية التي عنها ماركس الشاب عندما ذكرنا أن مفهوم الجندري إنما هو مشتق من الجندر . ولكن جذر الانسان هو الانسان نفسه ، فما كتبه «هاينريش بل» لم يكن قط مجرد أدب .

في كُتُب «بل» يجب أن نعشش شيء ينفع الناس . لقد جعل لهم اللغة قابلة للسكى . فالتطابق النادر بين هويّتي المؤلف وأعماله أمر يتخطى التجربة اللسانية الذوقية . إذ أن أعمال «بل» حافظت دوماً على التوازن بين ما يؤمله القارئ من تخيّل منطاري وما يقدمه له المبدع .

لقد حدّد «بل» نفسه هذا اللاتن في فنه عبر جلته الشهيرة المدهشة : «ماذا؟ أنا وليس «غراس»!« وهي الجملة التي قالها

المتحدر من العقل (Ratio) الروماني . ولا ريب أن هناك «عقولا» أو - أكثر من هذا الذي ارتضيناه عقلاً لنا .
إن تسميتنا هذا الكلام مقالاً ليست صحيحة تماماً . فهذا النص ينطوي أيضاً على أقصوصة . وهذا هو سرّ شأن في فن «هاينريش بل» : إن تصوره للانسان يستتبع نتائج أدبية مباشرة كلياً .

... ماذا يقول «بل» ؟ ... « هذا ما كان يسأله ، أو يصرح بلّ به ، أو يقوله أو يكتبه المساجون والمبعدون والمنفيون والمظلومون الذين كان يساعدهم في أغلب الأحيان ، إنسانيته القويمة ، وعناده أيضاً حافظاً لديه على هذا الشيء البراق المناق الذي نسميه «يوطوبيا» . «يجب ألا نخاف الذهاب بعيداً . . . قلها مرة . «ولن أدع أحداً يقتني بترك الأمل في هذه اليوطوبيا» أي يوطوبيا ؟ «مجتمع لا نفعيّة فيه ولا طبقات . «حالم ؟ أيضاً ولا شك ! لكن ، من لا يعلم يُخِن . ومجتمع لا يعرف الحلم إلا كلمة مبنوية في أبواب الدعاية هو مجتمع مهيد بالجنون . «هاينريش بل» يذكّر نفسه فقط بهذا الأمر ، بل ذكرنا نحن أيضاً . ونجاحه العالمي كان علامة توقنا جميعاً الى الأمل . لكنه الآن أمل تشوبه الظلال .

تخفيضه أو زيادته ، عن مسيحية الأحزاب المسيحية ، عن المخدرات والانتحار وضغط الانتاج والتلفزيون والعائلة وتجديد النسل ، وعن الارهاب والعصيان والقرود والثورة . فهو ، على أي حال ، قد وافق على السرقة لسدّ الجوع - : في حال الفقر المدقع تصبح الأشياء جميعاً ملكاً عاماً . لذلك يحقّ للذي يعاني فقراً من هذا النوع أن يأخذ من مال الآخرين لمعيشته ، اذا لم يجد من يتبرع له بذلك . والسبب نفسه ، فانه يحقّ أن يُؤخذ شيء من مال الآخرين ويُعطى صدقة ، وذلك يفترض بالطبع إنعدام طريقة أخرى لمساعدة المعوز . أما واذا أمكن أن يتم الأمر دون خطر ، فالأفضل أن يُحصل على موافقة الملك أولاً ثم يُنفق على المعوز - .

«والسؤال هو : هل الفرد وحده هو المضطرّ الى السرقة لسدّ الجوع ؟ أو ليس هناك شعوب بكاملها محتاجة الى السرقة بدافع الجوع ؟ ومَن له ، «دون خطر» ، أن يسأل «سوموزا Somoza أو الشركات المتعددة الجنسية ، ولو صدفة ؟ الأرجح أن الاجابات عن أسئلتني متضمنة باختصار في أعماله الكاملة ، التي يجب أن نتقضاها فكرياً . إن العقل الذي بى عليه والذي اشتتره الى حدّ مفرط ، العقل المتسوسطي الطبع ،

الكتاب والمتفنون الألمان يحملون تابوت هاينريش بلّ وهم : ليو كوبيليف (الأول على اليسار) ، جوتتر جراس (الثاني على اليسار) ، جوتتر قاراف (الثاني على اليمين) وفي المؤخرة أبناء هاينريش بلّ .



في الأدب والأخلاق والسياسة

شيء غير قابل للتبرير أو الموضوعية، أعني به الذوق. إنني لا أعرف منطقة أكثر منه وعورة. فكل منا يعرف، ولا شك، أناساً قد تربطه بهم صداقة، وقد يجد ذوقهم، فيما يتعلق باللوحات الزيتية والأثاث والكتب، فظيماً، ولكنه، رغم ذلك يقدر طابعهم ويحبهم. والعكس صحيح أيضاً، فقد نعرف إنساناً لا نشعر بأي عيب في ذوقه، ولكننا نستفزع طبعه.

إن من كان، مثلي، يفصل من برشت Bertolt Brecht شعره، فعليه أن يعرف أن هذا الشعر هو أيضاً برشت بكامله. وغوته Goethe، هذا الكلاسيكي الذي لا خلاف فيه، لست أدري ما يتصوره أولئك الذين قد ينصحون أولادهم بقراءته باعتباره شافياً من السقوط المعاصر. إن من ينصح بقراءة «الأنساب المختارة» Die Wahlverwandschaften و«الآلم فرتر» Die Leiden des jungen Werther و«فاوست» Faust، لا بد أن يكون مدرراً لما يفعل، والا فإنه لم يقرأ غوته قط. فالفوضى والفواجع والألم والقلق والحيانة الزوجية والانتحار، جميعها تختفي وراء هذا النثر الذي يحوز بسهولة مفرطة على الرضا والاعجاب.

ثم نأتي، بالأخص، إلى «كلايست» Heinrich von Kleist الذي يُقرأ، والحمد لله، في جميع المدارس والذي كان راديكالياً وكان أحياناً يعمل في دوائر الدولة. إن من يجعل أولاده يقرأون «كولهاس» Michael Kohlhaas و«كيتشن» Das Käthchen von Heilbronn والمسرحية الفكاهية الرائعة «الجزء المحطمة» Der zerbrochene Krug لا يشجعهم كثيراً على الإيمان بالسلطة. هؤلاء الكلاسيكيون خطرون. فكيف يكون القاص أقل مدعاة للخذل من كتاب المقالات؟

(..). فغذار إذن من القصاصين وحتى الكلاسيكيين منهم! وهذه الدعوة إلى الخذر موجهة إلى جميع الأحزاب السياسية.

الأمر الذي لم أفهمه، فلم يستطع بالطبع أن يؤذي، هو محاولة الفصل بين من يسيئ بالقاص وبين الآخر - الذي يكتب المقالات والنقد أحياناً، ويقف خطيباً أحياناً - وذلك بالرغم من كون المقالات والنقد والخطب هي أدب أيضاً.

وعندما نتكلم عن المتابع والأخطار، وأعود إلى ذاتي، أجد أن القاص أخطر وأكثر متابع من الآخر. لذا لا أفهم هذا الفصل بينهما، وأترك مهمة ذلك إلى متخصصي الآداب الألمانية. أني أجد أقصوصة تسيل بسهولة على طريقة موسيقى موزارت تقريباً - كما هي الكثير من أقاصيص همنغواي - وتلب بالعدم أو اللانسيء، تسوقه أمامها وتجعله يثب ويقفز، أخطر بالنسبة إلى من كثير من المقالات النقدية السياسية.

لا يمكنني أن أستوفي هنا كل الأخطار الناتجة عن هذا النوع من سوء الفهم. يمكنني أن ألمح إليها فقط، باعتباراً على التنكير ومنهياً على الخطأ، حتى عند قراءة الكلاسيكيين. فسوء الفهم هذا يحيق القدم، ضارب في الأعماق، وقليلة جداً هي الحالات التي كان فيها الناس كباراً وأسياداً إلى حد أنهم أن يثابروا بحموية على أيديولوجيتهم ونظرتهم إلى الحياة، وأن يقفروا، رغم ذلك، فوق الحدود، فيعترفوا بالفن والأدب اللذين لا يوافقان أيديولوجيتهم. وهنا يخطر ببالي ثلاثة: والتر بنيامين Walter Benjamin وروزا لوكسمبورج Rosa Luxemburg، والثالث - وليساعني الله إن ذكرت اسمه - هولنين، الذي وضع بعد الثورة لائحة بالكتاب الروس الذين يجب ألا تُمس تأثيلهم، وقد كان «الرجعي» دوستوفسكي واحداً منهم. وعندما نفكر كيف نعامل هاينريش هاينه Heinrich Heine أو أوستيتسكي Carl von Ossietzky في بلادنا، فلربما أمكن أن نأخذ لينين مثلاً يحتذى.

في تقدم النتاج الذي نسميه النتاج الفني، هناك دور يلعبه

وهناك واحد آخر نسيته ، «جورج بوشنر» Georg Büchner الذي لا يكاد يرقى الشك إلى أنه إرهابي ، حتى أن البحث يجري عنه على هذا الأساس ، أتودون تكريمه ، وهو الذي الذي يلعب على جميع المسارح ويُقرأ في كل المدارس ؟

(مقتطفات من كلمة «هاينريش بل» عندما أصبح «مواطناً فخرياً» في مدينة كولونيا في ٢٩ نيسان/أبريل ١٩٨٣) .

(. . .) فأنا ، على أي حال ، أرى أن «غراس» Günter Grass في «طليلة الصفيح» Die Blechtrommel أخطر منه في «يوميات حلزون» Tagebuch einer Schnecke . ولا يمكنني أن أتجنب الضحك عندما تتماذى البورجوازية في حب صاحبها «توماس مان» Thomas Mann محطيم البورجوازية .

إنني أكرر : الخطر في الأبحاث والمقالات النقدية هو ما يكمن فيها من شعر ومن تعبير لغوي لا يتنضوي تحت لغة الرثابة السياسية . ويخطيء من يكرّم كاتباً معتدلاً يرضى عن كل شيء . إذ أنه لم يعد سوى مملّ ، ذلك الكاتب الذي تريدون تكريمه .

* * *

Heinrich Bölls letztes Gedicht

Für Samay

Wir kommen weit her
liebes Kind
und müssen weit gehen
keine Angst
alle sind bei Dir
die vor Dir waren
Deine Mutter, Dein Vater
und alle, die vor ihnen waren
weit weit zurück
alle sind bei Dir
keine Angst
wir kommen weit her
und müssen weit gehen

Dein Großvater

8. Mai 1985

قصيدة هاينريش بل الأخيرة

الى ساماي

نأني من بعيد
يا حلفتني الحبيبة
وعليتنا أن نذهب بعيداً
لا نخافي
كلهم حولك
كل من كان قبلك
أُمك وأبوك
وكل من كان قبلهما
من زمن بعيد بعيد
كلهم حولك
لا نخافي
نأني من بعيد
عليتنا أن نذهب بعيداً

جَدُّكَ

٨ مايو ١٩٨٥

هاينريش بل وكاترينا بلوم

الانتماضة الطلابية - المحرر) وعندما بدأ اتهام الحركة الطلابية بالاجرام، ترى بل مرة أخرى يقف في صف الشباب وينادي بالتعقل، ساجداً ضد التيار .

(من كتاباته هذا الصدد المقال الذي أثار ضجة كبيرة «هل تريد أولريكه ماينهوف الرحمة أم أنها تريد أن تؤمن على حريتها - المحرر) .

تعرفت عليه شخصياً في تلك السنوات وبدأت صداقتنا أيام كتابته «شرف كاترينا بلوم الضائع»، فأراني النص وقررنا في حينه أن نخرج الرواية للسينا . وأمضيت مع مرجريت فون ترونا^(١) أياماً طويلة في بيته نكتب ثلاثتنا السيناريو، كان بل Böll شعلة من الحيوية . كتب مناظر إضافية وأجزاء من الحوار خصيصاً للفيلم وأعاد رسم الشخصيات بدقة أكثر، بل أعاد تأليف بعض الأجزاء من الرواية . وبعد أن كتبنا السيناريو ناقشناه مع بل، لم نناقش كل منظر على حدة وإنما تكلمنا عن الشخصيات وركزنا على تطورها كأفراد .

وبرزت من خلال تلك النقاشات مناظر جديدة أعدنا معالجتها مرة أخرى وأضاف بل نصوصاً جديدة لها، كان عملنا مركزاً لا على إيجاد هيكل السيناريو أو تأليف الحوار وإنما كان الهدف منه إعادة وصف الشخصيات، تحويلها من شخصيات أحادية البعد إلى شخصيات ذات أبعاد متعددة . واكتشفنا خلال هذا العمل المشترك أنه بالامكان رسم إنسان بأكمله بسطور قليلة .

مونيكا ماورر :

ما هو الفارق بين العمل الروائي وبين السيناريو ثم الفيلم ؟

شلوندورف :

هناك الكثير ما يعبر عنه العمل الروائي بطريقة مجسمة يصح ثقيلًا عندما يتحول إلى صورة في الفيلم، فالفيلم له لغته الخاصة

يعد فولكر شلوندورف من أهم المخرجين السينمائيين الشباب في ألمانيا الاتحادية وقد ذاع صيته كمخرج لروائع الأدب العالمي . (طبعة الصفيح - عن رواية جونتر جراس والتي قدمناها في «فكر وفن» عدد ٤١، و «البحث عن الزمن الضائع» لمارسيل بروست و «الحرب والسلام» لتولستوي و«القي تولى» لروبرت موزيل .

هذا وقد قام شلوندورف بإخراج رواية هاينريش بل «شرف كاترينا بلوم المفقود» في عام ١٩٧٥، وبعدها بعام واحد ألف بل قصة ساخرة بعنوان «أنتيجونا اليوم» كتب على أساسها شلوندورف سيناريو الفيلم المسمى «ألمانيا في الحريف»، ثم تعاون الاثنان عام ١٩٨٢ في كتابة سيناريو «الحرب والسلام» .

ويتذكر شلوندورف بل «كأب روجي للفيلم الألماني الجديد» الذي تابع تطوره عن كتب ابتداءً بأعمال المخرج جان - ماري شتراوب وحتى إنتاج مارجريت فون ترونا وفرنز هرزوج . كما أنه شارك بفعالية كبيرة في إخراج فيلم «كاترينا بلوم» . وكان شلوندورف قد التقى بل في بيته في جبال الألب قبل وفاته بأسابيع قليلة، ومحدثنا هنا عن هذا اللقاء الأخير وعن ذكرياته عن هاينريش بل .

شلوندورف :

بدا لي بلباسه الريفي والبهريه شبيهاً بأخيه الذي يحترف التجارة . إن وفاته بالنسبة لي - بالنسبة لنا جميعاً - هي كالو كنا قد فقدنا أباً . فقد كان بل في الخمسينات، في ذلك الزمن «بلا آباء»، هو الوحيد الذي رفع صوت العقل، والوحيد الذي سبج ضد تيار «الحرب الباردة» .

كان بل هو الوحيد الذي كنا نؤمن بصدقه، فكلماته لم تكن موعظ وإلما كانت مشوية دائماً بروحه المرح .

أما أنا شخصياً فاكشفته وأنا في الخامسة عشرة من عمري عندما قرأت رواياته الأولى . وبعدها، أي بعد ١٩٦٨ (عام

(١) مارجريت فون ترونا من أفصح المخرجات الألمانيات، اشتهرت بفيلمها «الزمن الثقيل كالرصاصة» و «الجنون الساطع»، وفي متروحة من فولكر شلوندورف .

هذه الأحداث التي تعطي صورة عن الجو السياسي في تلك السنوات .

مونیکا ماورر :

كيف عاش بلّ تلك الفترة وهل استطاع أن يتغلب على آثارها ؟

شلوندورف :

لم تكن من عادة بلّ أن يفرق بين الحياة العامة والحياة الخاصة، بين الكاتب والانسان . فقد كان إخلاقياً إنسانياً أو إنسانياً أخلاقياً ، وعندما وضع هو نفسه في قصص الانهيار رأى في ذلك دليلاً على موقف الصحافة والساسة الذي يهزأ بكل القيم الإنسانية ، وهو موقف كان دائماً موضع نقده . إن بلّ لم يكتسب شخصيته القوية بعد تلك التجارب المرة ، فبالرغم من مشاركته في كتابة فيلم «ألمانيا في الحريف» و «الحرب والسلام» ، إلا أنه كان على قدر ما من التحفظ والبعد الساخر . إن استعداد بلّ الدائم للمشاركة في الصراع كان نابعاً من موقفه الإنساني وليس من موقع النشاط السياسي .

مونیکا ماورر :

هل كان بلّ مهتماً بالفيلم في حد ذاته كوسيلة للتعبير الفني ، أم أن مشاركته في العمل كانت مشاركة إنسانية وسياسية وأدبية ؟

شلوندورف :

يذهب أبطال بلّ وبالذات بطلاته الى السينما لمشاهدة الميلودراما المؤثرة التي تستحوذ على مشاعرهم حتى البكاء ، وبّل نفسه كان يحب هذا النوع من الأفلام ، حتى أن الفيلم الذي أخرجه شتراوب عن قصته «البلياردو في التاسعة والنصف» كان في رأيه جافاً جداً . بعد مضي عشر سنوات على إنتاجه اعترف بلّ بأنه فيلم متميز من الناحية الفنية لكنه لم يؤثر فيه . مع مرور الزمن تمت علاقته بالفيلم واهتمه به كأداة للتعبير الفني ومن الملاحظ أن رواياته اللاحقة تصلح كلها للسينما .

مونیکا ماورر :

هل هذا هو السبب في اهتمام المخرجين بأعمال بلّ ؟

التي تتطلب صوراً لا توجد في النص المكتوب ، تكتسب قدرتها التعبيرية في الفيلم . يجب تجاهل النص الأدبي ، فهمتنا ليست أن نعطي الكتاب حقه وإنما أن نعطي الواقع حقه .

مونیکا ماورر :

هناك وسائل مختلفة ينقل بها العمل الأدبي في الفيلم بحيث يبرز من خلاله ، أو هل تظن أنه من الممكن إخراج عمل أدبي والتظاهر بأنه غير موجود كنص مكتوب ؟

شلوندورف :

لا يمكن تصور هذا الفيلم بدون رواية بلّ ، فإن ما تنتجه هو في نهاية الأمر عالم بلّ وليس الواقع المباشر . فكل الشخصيات هي شخصياته ، وهذا هو منبع قدرتها التعبيرية .

مونیکا ماورر :

هل تظن أن بلّ قد كتب الرواية وهو يأخذ في عين الاعتبار أنها ستتحول إلى فيلم ؟

شلوندورف :

لا أعتقد ، أن العديد من المقومات في قصته كانت تنسب في الماضي الى التكنيك السينمائي مثل الاسترجاع والكولاج المركب من المقالات الصحفية والمحاضر . ورغم أننا كنا الثلاثة - بلّ ومارجريت وأنا - قد قررنا الالتزام بأسلوب مستقيم ومباشر في السرد ، حتى ان المتفرج يذهب في رحلة استكشاف مع كليرينا ويتحول معها من مراقب إلى متأثر ذاتياً وهي نفس التجربة التي مر بها بلّ والتي قد نمر بها جميعاً .

مونیکا ماورر :

ما هو العنصر الأساسي في فيلم كليرينا بلوم ؟

شلوندورف :

يكن العنصر الأساسي في إيراد الأساليب التي تنتهجها الصحافة مع تصوير دور الجواز البوليسي والكنيسة في مجتمعنا . إن ما أردنا التعبير عنه في منتصف السبعينات هو هستيريا الانهيار بالإرهاب ، تلك المطاردة المجنونة التي ماثلت مطاردة الساحرات في القرون الوسطى والتي أصبح بلّ نفسه إحدى ضحاياها .

لم يكن بلّ يحب الحديث عن معاناته في ذلك الوقت ، لعدم رغبته في الظهور بمظهر الضحية . لكنه قد قاسى حقيقة من

مونیکا ماورر :

ما هو تأثير بلل السياسي على الفيلم الألماني ؟

شلوندورف :

علمنا بل - نحن مخرجو الأفلام - أن نصف الشخصيات البشرية وليس فقط الأفكار والبرامج ، كما علمنا أن نصف الأشخاص في حياتهم اليومية العادية ونبرز بذلك البعد السياسي الذي يتضمنه وجودهم . وهذا بالضبط ما أراد إظهاره في روايته « كاترينا بلوم » و « صورة مجموعة مع امرأة » . كان بل يقول إن بلادنا قد حُرّيت مرتين ، المرة الأولى بالقتال في الحرب العالمية والمرة الثانية بالاسمعت والأسفلت وبدلاً عن بلد ومجتمع إنساني أقاموا صحراء من الأسفلت حطمت العلاقات الانسانية .

مونیکا ماورر :

ان كاترينا وليني وخصيات أخرى خلقها بل ، هن ثائرات ورافضات ولكن بلا إيديولوجية ؟

شلوندورف :

لم يكن بل من المؤمنين بالأيديولوجيات ، لا بالديانة الكاثوليكية ولا بالماركسية ، مثله مثل جيل بأكمله من عاصرو النازية وأرادوا الابتعاد عن الأيديولوجية . ولعل هذا ما جعل أعماله غير مرتبطة بعصر معين ، فخصياته صادقة دائماً في كل زمان ومكان . إنني أود أن أضفه بفوضوي مسيحي ، وكثيراً ما قال لي : « عندما يترك شخص ما الفريق الذي ينتمي إليه ، فهذه بداية إنسانيته » .

مونیکا ماورر :

هل يطابق الواقع في ألمانيا الاتحادية كما يصفه بل ما يعبر عنه فيلم « كاترينا بلوم » ؟

شلوندورف :

علينا أن نفرق بين الفيلم وبين الكتاب . فإدانة القصة تتغير عندما نضعها في إطار في آخر . أردت أن أتفادى أسلوب التقرير الصحفي ، مثلما حاولت ألا أعرض نظرية معينة . فإخراج أفلام واقعية يتطلب بالدرجة الأولى التكثيف والتجرد وحتى التصنع بشكل أو آخر ، أي خلق واقع سينمائي قائم بذاته ، نفس الشيء كما لو كنا نحاول أن نتذكر كيف



أنجيلا فينكلر في دور كاترينا بلوم .

شلوندورف :

ان المزيج الذي تمتاز به أعمال بل من بساطة في الفهم وال التزام بهذه البساطة ووصف دقيق للعالم من حوله ، هذا كله درس مفيد لنا كمخرجين ، فليست مهمتنا هي التخيل وإنما دقة الملاحظة . إن بل كاتب كبير فعلاً ، فهو لا يحلل المشاكل لكي يعبر عنها وإنما يصف الشخصيات الصادقة في المواقف الصادقة ، بينما لم تتمكن نحن على الإطلاق من أن نعبر عن تصوراتنا بهذا القدر من البساطة . وهذا الوصف الدقيق للحياة الآن ذو تأثير سياسي ، قد يكون أكبر صدق من الادعاء السياسي العالي الصوت .

كانت الأوضاع في السبعينات... وكاترينا بلوم هي في نظري أخت ليني ينالفر الصغرى في رواية «صورة مجموعة مع امرأة»، فاحداها - وهي ليني - تعيش استمرارية التاريخ الألماني من النازية مروراً بفترة ما بعد الحرب وحتى المعجزة الاقتصادية والحركة الطلابية. بينما تعيش الأخرى - كاترينا - واقعا المباشر في ألمانيا الاتحادية والاتجاهات الرجعية السائدة فيه. سلوك كاترينا مثله مثل سلوك ليني «لا يتفق والزمن الذي نعيش فيه»، ولكن قصتها تؤثر فينا تأثيراً مباشراً، فكاترينا شخصية روائية تجذب المشاهد الى التعاطف معها والتشبه بها.

إنها مثل ليني - مليئة بالشفقة والحب والكرامة الانسانية والشرف، وكلها قيم تضطر شيئاً فشيئاً الى التنازل عنها. وتحاطر كاترينا مثلها مثل ليني - في مواجهة الاتهامات الملققة وتشويه سمعتها محاولة إنقاذ كرامتها، فهي تعلم حملنا جميعاً بتحقيق تلك الانسانية الخالصة، حلم لا وجود له إلا في الأفلام.

مونیکا ماورر :

ما الذي نفقده - يفقده جيلنا وتفقده ألمانيا الاتحادية بوفاة بل؟

شلودنورف :

بالتأكيد كلاهما يفقد شخصاً يحتمل إنهما لم يكونا يستحقانه، فهو الوحيد الذي كان جديراً بالثقة على مستوى المجتمع كله. وليس من قبيل المصادفة أن رواياته الأخيرة لم تلق نجاحاً كبيراً، فقد كانت أقل لفتاً للأنظار من التي سبقتها. كثيراً ما ينظر الجمهور الى الأمام، الى المستقبل، في محاولة لنسيان علاقته بالزمن وبحو الماضي.

مونیکا ماورر :

وما خسارتك أنت شخصياً بوفاة بل؟

شلودنورف :

خسرت أولاً وقبل كل شيء صديقاً ورفيق طريق كان يشاركني في التظاهر ضد الصواريخ النووية المتوسطة المدى وفي سبيل السلام. لم يكن بل ليفرق بين الانسان الروحي والانسان السياسي، بل أنه كان يحكم على السياسة من خلال عقل الانسان وروحه. هذا كان مقياسه. إن أخاه التجار حربي ماهر جداً، بل أيضاً كان كذلك هو الآخر : الفارق بينهما أن الأول يعرف كيف يعالج الحشب، بينما كان بل يجيد التعامل مع الكلمات والضمير.

شرح لرسوم الصفحتين ٧٢/٧٣ .

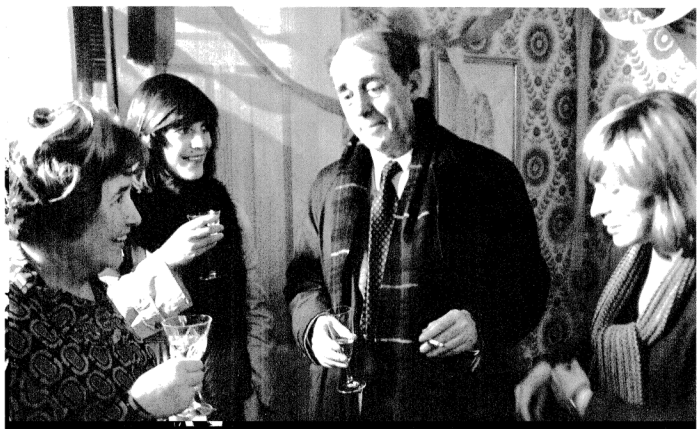
صفحة ٧٢ : - (الأعلى) - الصورة الأولى : مراسل جريدة (Zeitung)، توجز (ديتر لازار) بحثاً عن الاثارة الصحفية، يتنكر، ويقتحم غرفة العناية الفائقة، حيث كانت والدة كاترينا بلوم محتضر، ويعلمها بما حصل لانبثا .

صفحة ٧٢ : - (الأسفل) - الصورة ٢ : تقفيس بيت كاترينا بلوم من طرف الشرطة .

صفحة ٧٣ : - (الأعلى) - الصورة ١ : مضايقة كاترينا بلوم من طرف الصحافيين قبل الانشجواب .

صفحة ٧٣ : - (الاسفل) - : هابزريش بل مع مارغريتا فون ترونا وأنجيلا فيتنكر ووالدتها .





نادرة للحطّ من اخلاقيّة العمل

«أشعر بأني راع»

تعبير وجه السائح زداد تعاسة . لم يعد يقوى على كبت السؤال الذي راح - اذا جاز التعبير - يهدّد بتفجير قلبه : «ولكن ، لِمَ لا تبحر إذن ؟» .
يجيء الجواب سريعاً ، مقتضباً : «لأنّي قد أبحرتُ صباح هذا اليوم .»

«كان جيداً الى حدٍ يغنيني عن الابحار ثانية . كان في سلاي أربع قطع من السرطان البحري ، وقد اصطدت أكثر من دزيتين من الإسقمري . . .»

يقوم الصياد الآن ، وقد صفا أخيراً ، ويربت على كتفي السائح مطمئناً ، فهو لا يرى داعياً لتعبير الهمّ في وجهه ، رغم كونه بالفعل تعبير قلق مؤثّر .

«وحتى عندي ما يكفي غداً وبعد غد .» يقول هذا كي يروح عن نفس الأجنبي . «هل تدخن واحدة من مجاري ؟»
«نعم . شكراً .»

توضع السجاجة في كل من الفمين . «كُلِك» خامسة . الأجنبي يجلس على حافة القارب وهو يهز رأسه ، يضع آلة التصوير جانباً ، فهو الآن بحاجة الى كئنا يديه ليدعم كلامه . «لا أريد التدخل في شؤونك الخاصة ، ولكن ، تصوّر أنك تبحر اليوم مرة ثانية أو ثالثة أو حتى رابعة ، وتضطاد من الإسقمري ثلاث دزيتات أو أربع أو خمس أو حتى عشر دزيتات . . . هلا تصوّرت هذا .»

الصياد يهز رأسه موافقاً .

«سوف يمكنك أن تشتري محرّكاً بعد سنة على الأكثر ، وقارباً ثانياً بعد سنتين ، وبعد ثلاث سنوات أو أربع يمكنك أن تحصل على زورق شراعي» ، وبواسطة القارين والزورق الشراعي يمكنك أن تضطاد أضعاف ما تضطاده الآن - ويوماً من الأيام سيكون لديك زورقان شراعيان ، سوف . . .»
الحماسة تحطّف صوته برهة . «سوف تبني مخزن تبريد صغير ،

في ميناء على الشاطئ الجنوبي من أوروبا ، رجلٌ فقير الثياب مستلقٍ ، يومٌ في قارب صيد له . سائحٌ أنيقٌ ينتهي لساعته من وضع فلمٍ جديد في آلة تصويره ليأخذ صورة للمنظر ببساطته الساحرة : سماء زرقاء ، بحر أخضر وأمواج مسالمة بذراها الثلجية البيضاء ، قاربٌ أسود ، وقبّعة صيد حمراء . «كُلِك» . ومرة أخرى «كُلِك» . وما أن كل الأشياء الجديدة مثلثة العدد ، وأن التأكد هو الأسلم ، فمرة ثالثة : «كُلِك» . الطقطقة الجافة ، المنقّرة ، والمعادية تقريباً توقف الصياد المهوّم ، الذي يقوم مليئاً بالنعاس ، ويحاول ، أن يصطاد علبه بجاروه . ولكن ، قبل أن يجد بغيته ، كان السائح المتحمس قد حلّ له علبٌ تحت أنفه ، غير أنه لم يغرز السجاجة في فمه بالضبط ، بل وضعها في يده . وتأتي «كُلِك» رابعة ، صادرة من علبه الكبريت ، لتنهى الجمالة الهواجة .

عبر ذلك الإفراط في الجمالة النشيطة ، وهو إفراط يصعب قياسه ويستحيل إثباته ، نشأ حرج منغلّ حاول السائح - الضليع في لغة البلد - أن يتجاوز به بالحديث :

«سيكون صيدك اليوم موفقاً .»

هزة رأس سلبية من جانب الصياد .

«ولكن قيل لي أن الطقس مناسب .»

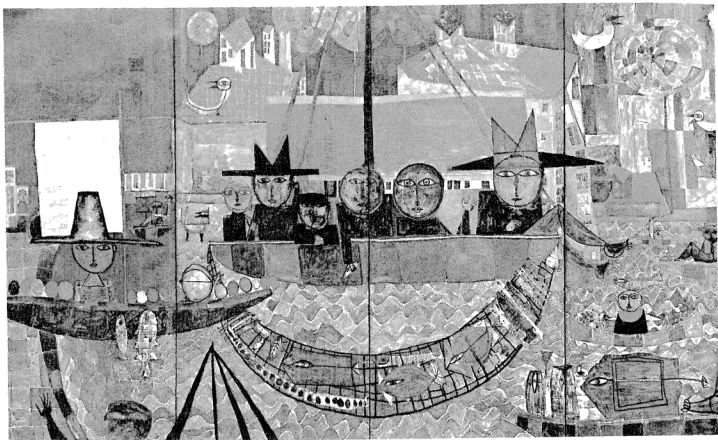
هزة رأس إيجابية من جانب الصياد .

«لن تُبحر إذن ؟»

هزة رأس سلبية من جانب الصياد ، وتوتر متصاعد من جانب السائح . لا ريب أن مصلحة الرجل الفقير الثياب تشغل باله والخوف من الفرصة الموقوتة يحزّ في قلبه .

«آه ، لست بصحة جيدة ؟»

وأخيراً ، ينتقل الصياد من لغة الإشارة الى لغة الكلام المحكيّ حقاً : «إني على خير ما يرام . لم أكن في حياتي كلها أفضل مني الآن .» يقف ويتمطّل كئناً يريد أن يعرض قوّة جسمه الرياضي :



فريدنرايش هوندنرتاسر : الصيد العجيب ، ١٩٥٠ .

«ثمّ»، يقول الأجنبي بحماسة هادئة . «ثمّ، يمكنك أن تجلس مطمئناً هنا في المرفأ، وتهوّم في الشمس - وتتمتع بمنظر البحر الرائع .»

«لكن هذا بالضبط ما أفعله الآن!» وتابع الصياد : «أجلس مطمئناً في الميناء وأهوّم . لكن طلقفتك أزيجتي .

وبالفعل، بعد تلك الأمثلة، غادر الساحل المكان مهموماً . فقد كان هو أيضاً يعتقد، فيما مضى، أنه إنما يعمل ليوم لا يعود فيه بحاجة الى العمل . ولم يبق في قلبه أثر للاشفاق على الصياد الفقير الثياب، وإنما بعض الحسد .

وقد تبني معملأ للسك المدخن، وفيما بعد معملأ للتلميح، وتحوّم بطائرك العمودية الخاصة فتكتشف تجمعات الأسماك وتعطي التعليمات إلى زورقيك باللاسلكي . يمكنك أن تحتكر حقوق اصطياد السلمون، وأن تفتح مطعماً، وأن تصدر سلطان البحر الى باريس دون وسيط - ثمّ... مرة ثانية، يعجز الأجنبي المتحمس عن متابعة الحديث . يهز رأسه والأسى يملأ قلبه، وفرحته بالعطلة تكاد تضع، وينظر الى المدّ المتقدم بسلام أمامه، حيث تقفر الأسماك الطليقة بمجرع «ثمّ...» لكن التهجّ يطبق على صوته من جديد . يدقّ الصياد على ظهره، كما يفعل المرء بطفل شرق بريقسه . «ثمّ ماذا؟» يسأل بصوت خافت .

الفن التركي في العهد العثماني

حدث احتكاك بينها وبين شتى الحضارات المتقدمة والأديان النبيلة . وباعتنائهم للسلام أخذ العثمانيون أيضاً جوانب من التراث العربي - الفارسي . وكان الأخذ بصور الحضارة البيزنطية أصعب ، ذلك لأن استيعاب تاريخ العصور القديمة ودول الغرب المتطبعة بالمسيحية كان محدوداً . ولهذا السبب لم يقتبس العثمانيون سوى تلك العناصر البيزنطية التي كان من الممكن إدماجها في حضارتهم الإسلامية .

كانت علاقات الأتراك مع الغرب مطبوعة على مدى قرون بطابع النزاعات الحربية . ولم تكن الاتصالات الدبلوماسية التي أقامتها الامبراطورية العثمانية مع عديد من دول أوروبا الوسطى والغربية تخدم سوى المصالح الاقتصادية . وكان الجزء غير العثماني من أوروبا لا يزال يُسَمَّى «دار الحرب» ، وكان يُنظر إلى أهله - الذين كانوا يُسَمَّون «إفرنجيه» - على أنهم كفار .

أناء من الخزف Kütahya ، القرن السادس عشر الميلادي .



تشهد المعارض الممثلة للفن التركي ولثقافة العهد العثماني المقامة في فرانكفورت وإسّن على الاهتمام المتزايد بالصلات الثقافية بين الشرق والغرب . ويرجع الفضل في المستوى الرفيع لهذه المعارض إلى ما قُدِّمَ إليها من تحف أثرية مُعارة من مصادر خاصة وعمومية من أوروبا وأمريكا . ولأول مرة تضع تركيا ذاتها معروضات أثرية تعبرها خارج حدودها تحت تصرف تلك المعارض . ويقدم دليل من جزئين ، أخذت منها الصور المبينة هنا ، إلاماً ممتازاً بكل واحدة من التحف المعروضة . كما تساهم مقالات لاختصاصيين مشهورين في التزويد بمعلومات واسعة التفرع عن هذا المجال الثقافي . وإنها المرة الأولى التي يُقدَّم فيها في أوروبا معرض بهذه الصورة الشاملة .

كانت الدولة العثمانية (١٢٨١ - ١٩٢٢) تضم امبراطورية عظيمة تترامى أطرافها عبر ثلاث قارات . ومع مُضي توسعاتها

خضعان من الخزف ، القرن السادس عشر الميلادي .





جنتيلي بايني : السلطان عبد الثاني الفاتح .



صحن خزفي من ازنيك (القرن السادس عشر الميلادي) .

تتال فرعونى (الأسرة المالكة ١٩ ، الامبراطورية الجديدة ١٢٥٠) ، من التاتيل التي عرضت في معرض «نفرتينى الجميلة» الذي نظم سنة ١٩٨٥ في ميونيخ ، في برلين وفي < هلدسهايم .



غير أنه سرعان ما بدأ يظهر إهتمام واضح بالثقافة الأوروبية في أوساط الطبقة الراقية المحدودة التي بدأت تتكون تدريجياً . ويرجع السبب في إثارة هذا الانتباه على وجه الخصوص أيضاً الى غنائم الحرب - لا سيما من مناطق البلقان - والى الهدايا المقدمة من السفراء ، وكذلك الى تقارير المفوضيات أوساط الطبقة الراقية المحدودة التي بدأت تتكون تدريجياً . ويرجع السبب في إثارة هذا الانتباه على وجه الخصوص أيضاً الى غنائم الحرب - لا سيما من مناطق البلقان - والى الهدايا المقدمة من السفراء ، وكذلك الى تقارير المفوضيات والاتصالات مع المسافرين .

قام **محمد الثاني** (الملقب بالفاتح) ، والذي استولى على القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، بحفظ العديد من الآثار التذكارية المسيحية في قصره . وقد عني أيضاً بالديانة المسيحية ودعى البطريق جناديوس شولاريوس ليؤلف مُحملاً للقائد المسيحية تُرجم الى التركية : فقد كان خليقاً بالطبقة الحاكمة أن تكون على علم برعاياها المسيحيين . وفي إبان حكمه استدعى محمد الفاتح فناني إيطاليين الى بلاطه . وفي عام ١٤٨٠ - أي قبل وفاته بسنة - سمح للرسم الفينيسي المشهور جنتيله بليني Gentile Bellini أن يرسمه ، في وقت كان الباب العالي في مناقشات حربية مستمرة مع السلطة الحاكمة للبنديقية بشأن جزر مختلفة في البحر المتوسط ، كان كلا الطرفين يتنازعان على ملكيتها .

كان محمد الثاني - الحاكم الذي جمع بين السطوة والذوق الفني والاهتمام بالثقافات الأجنبية - في وسعه أن يعصى أمر الدين الاسلامي بعدم عمل صور طبق الأصل من الانسان . غير أن ابنه **بايزيد الثاني** - الذي كان ورعاً شديد التدين - قام ببيع الأعمال الفنية الأوروبية في السوق . وبطريق الصدفة آلت صورة بليني الشهيرة لـ محمد الثاني الى المتحف الوطني في لندن . حاول ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci مثلاً بلا طائل أن يعرض خدماته على بايزيد الثاني لبناء كوبرى فوق خليج القرن الذهبي . بيد أن بايزيد كان يود أن يستخدم لهذا المشروع الفنان العظيم ميخائيل لانجلو ، الذي أراد خليفته سلم الأول أيضاً أن يستدعيه كرسام بالباب العالي . أمر ابراهيم باشا - الصدر الأعظم لسلطان الأول - بأن تُعرض

في حلبة سباق الخيل التاتيل البرونزية لهرقل وديانا وأبولو التي أعتُنت من مدينة بادوفا ، مما كان مدعاة للكثير من القيل والقال . وبعد موته اختفت تلك التاتيل دون أن يُعثر لها على أثر . ومع ذلك فقد كان هناك دوماً معجبون بفن الرسم الأوربي ، الذي لم يبدأ يكتسب تأثيراً بطيء إلا في القرن الثامن عشر . وقد تغير هذا الوضع حقاً في القرن التاسع عشر وفي عصر الإصلاحات - التنظييات - بدأ السعي الى الاعتراف الوثيق على النشاطات الحضارية الأوروبية والتقدم العلمي - التقني للغرب . ومع ذلك فقد كانت لازال هناك حاجة الى تحطيم التحامل على الدين وعلى التقاليد الحضارية المخالفة . أما العلوم التطبيقية المتعلقة بتكنولوجيا الشئون الحربية فقد كانت مطلوبة منذ القدم . تعامل العثمانيون في غزواتهم الحربية على سربيا مع الأسلحة النارية منذ زمن مبكر الى حد ما . ولذلك فانهم استخدموا مهندسين ألمان وعمالاً لسباكة المدافع ايطاليين ومجريين . وبفضل مساهمتهم (تقديم العون والحجرة الفنية) إستطاع محمد الثاني في ذلك الحين عند محاصرته للقسطنطينية عام ١٤٥٣ من إستعمال المدافع . وكان هناك اهتمام بالغ من قبل الأتراك أيضاً بعجالات العلوم الطبيعية والجغرافية والفلك والطب . كذلك أدخلت طباعة الكتب الى الامبراطورية العثمانية عام ١٧٢٧ بواسطة مجري إرتد عن دينه .

في القرن السابع عشر - إبان فترة حكم محمد الرابع - شاعت عند العثمانيين آلات موسيقية أوروبية - وعلى وجه الخصوص آلة الكمان . ومناسبة ختان أحد الأمراء تعاقد الباب العالي مع فرقة أوبرا إيطالية . وفي النهاية نجح جيوفاني دونيتسي ، الذي كان يشغل في القرن التاسع عشر منصب قائد الفرقة الموسيقية العسكرية للسلطان ، في إدخال الطابع الموسيقي الغربي على نطاق أوسع لدى الحكام العثمانيين . وعلى العكس من هذه العناية بالموسيقى لم يكن هناك لدى العثمانيين حتى أواخر القرن التاسع عشر إهتمام يُذكر بالعلوم والفلسفة والآداب الأوروبية .

تقع فترة ازدهار الفن والثقافة العثمانية المستقلة بشخصيتها في القرن السادس عشر . في ذلك الوقت كانت الفتوحات العثمانية في الغرب قد انتهت وأصبحت أراضي الدولة في حكم المُستَبَتَّة . وهنا إنصبَّ إهتمام الحكام على تعمير وتحجير القصر

السلطاني في إستانبول والقصور القائمة في بورصة وأدرنه - والتي كانت لازال المقر الصني للسلطان . وفي هذا السعي نحو التعمير الحضاري كان بوسع الحكام العثمانيين الرجوع الى فن العمارة السلجوقي ، الذي كان قد تطور منذ القرن الحادي عشر في الأناضول .

ومن أهم الأنماط البنائية الجوامع والأضرحة ومستراحات القوافل والقصور التي تطور طرازها تحت التأثير الفارسي . وتتمتع بالشهرة والقبول حتى يومنا هذا المآذن الأبرية المنيئة المبنية من الآجر والتي ما زالت موجودة أيضاً في أفغانستان وهند . والمميزات الفوذية للمآذن السلجوقية - العثمانية هي الزخارف الفنية المشكّلة من الآجر المطلي بطبقة زجاجية لامعة ملونة أو المؤلفة من فسيفساء القيشاني . وامتد التراث الزخرفي كذلك الى المباني العادية غير الدينية ، حيث كانت توجه عناية خاصة الى زخرفة البوابات .

لم تلعب طرق القوافل عبر الأناضول في العهد العثماني سوى دور محدود . فقد انتقل مركز النقل التجاري الى استانبول والبحر المتوسط . وكان من نتيجة ذلك أنه لا توجد حالياً أو لم تكن توجد في الماضي سوى شواهد قليلة على الفن العثماني . واشتمل الفن السلجوقي الكبير - أي الذي يُقصد به إندماج الفئتين السلجوقي والفارسي - أيضاً أشغالاً معدنية وخشبية وفن السجاد وكذلك فن النسيج . وقد واصلت هذه التقاليد تطورها وطراً عليها تغيير . وهكذا فقد اختفت على سبيل المثال العناصر الشكلية في الزخرفة .

نشأت في فن الحرف أنماط وأساليب فنية جديدة تماماً . ولقد كانت إزنيق وكوتاهيا في ذلك الحين مصانع مزدهرة ظلت تعمل وحظيت بشهرة عالمية . وفي العهد العثماني تعرّض قيشاني إزنيق بوجه خاص الى تحول سريع في الطراز . فقد سادت منتجات القيشاني البيضاء الزرقاء المزخرفة على الطراز الصيني حوالي عام ١٥٠٠ ، وطراز العنصون اللولبية لمجموعات القرن الذهبي من عام ١٥٢٠ حتى عام ١٥٣٠ ، نموذج ذو ألوان زاهية في أواخر القرن السادس عشر . وهذا

التطور مميّز للفن العثماني الذي اكتسب أسلوب التصور الأوروبية - وهو أسلوب فني ذهب في سماء الى الازدياد والعبرية مذهباً فنياً عالي التطور . وأدّى الولع بتكسية البنايات الكبيرة في استانبول كدية بالبلاط ، والذي بدأ يرسم في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، في نهاية الأمر الى توقف إنتاج البلاط تماماً في القرن السابع عشر ، نظراً لأن محاجر الصلصال في إزنيق قد إستهضت بالكامل . وتُعدّ مصانع الديباج والحمرير الشهيرة في بورصة وأمازيا من المصانع الوطنية للكاليات ، حيث كانت تتنافس على جودة وراء ألوان منتجاها التي كان حريرها يستورد من إيطاليا . وكان الباب العالي يُبعم على أتباع مختلفين للسلطان بأردية حريرية ثمينة كلاس تشريفية .

كان المتعهد الرئيسي للفن العثماني هو السلطان ووزارؤه . وكان اذا وُجد نقص في الشُّعاع الديويين والمعلمين الحرفيين يتم إستدعاء بَنّائين ونقاشين وعمال غزل وعمال في الصناعات المعدنية وخياطيين ونحاتين من مصر وإيران أو من دول البلقان الى الباب العالي . وأضيفت الى المنتجات المحلية والأشياء الفنية التي إغتنمت أثناء الغزوات الحربية العديدة تُحف فنية وبضائع إستلاكية بدوية الصنع أخرى كثيرة . وقد تمخض عن هذا التوجه نحو الغرب بصورة المتعددة في نهاية الأمر الطراز المعماري الجديد من القصور العثمانية الذي ظلت النماذج الأصلية منه الشرقية والغربية - أي السلجوقية والأوربية - متميّزة جلية حتى يومنا هذا .

كان الانتقان الصناعي اليدوي المطلق هو الغرض المسلّم به للفن العثماني . ويبدو هذا الانتقان بوضوح في القرنين السابع عشر والثامن عشر على وجه الخصوص في المخطوطات اليدوية والرسوم المنمنمة وتجليد الكتب ورسومات المصاحف التي تمثّل دُرَى رائعة لإبداع الفني الشرقي بوجه عام وفيما تستمر حضارة وعقيدة الاسلام في ديومة تُشحر الزائرين الغربيين .

علم الآثار المصرية وآفاق التسعينات

مؤتمر علماء الآثار الدولي الرابع المنعقد في ميونيخ عام ١٩٨٥

وعلى وجه الخصوص المعالجة الالكترونية للمعلومات .
وشملت مناقشة الأولويات في بادئ الأمر إعداد وسائل
تعليمية أساسية ، لا سيما في مجال اللغة المصرية القديمة . إذ يعتمد
علم اللغة المصرية القديمة اليوم على قاموس للغة المصرية القديمة
تم تأليفه منذ خمسين سنة ، وبالتالي فإنه لا يأخذ في الاعتبار
النصوص التي تفوق الحصر والتي اكتُشفت وتُشرت على مدى
نصف القرن الأخير . هناك نقوش وأوراق بردى لا حصر لها
مكدسة في المتاحف أو مدونة في المعابد والمقابر بمصر لم
يتم نشرها حتى الآن . ولا بد أن تُدَوَّن الرموز الهيروغليفية
التي تربو على الحصة آلاف والتي تتألف منها النقوش .

ويُمثِّل الكشف عن الآثار وتدوينها في مجلات وترميمها في
مصر نفسها ، أي البحث الميداني ، أولوية من نوع خاص . إن
الوضع الحالي في مصر ، المتسم بنمو سكاني وبتوسع عمراني
سريع - خاصة في المناطق الأهلية بالسكان - وزيادة في
التصنيع ، يهدِّد بصورة لم يُعرف لها مثيل ثروة التُّصَبِ
التذكارية الثمينة الموجودة في مصر . إذ هيَّأت مصلحة الآثار
المصرية برئاسة مديرها النشط الدكتور أحمد قُذري في
السنوات الأخيرة الأسباب التنظيمية المساهمة فعالة من جانب
فرق من علماء الآثار المصريين والأجانب . فقد باشرت
مصلحة الآثار المصرية في السنوات الأخيرة على نطاق واسع
بترميم الآثار المعرضة للخطر ، وأولت المتاحف في مصر عناية
خاصة . وأنشئت متاحف إقليمية في كل أرجاء الدولة ، تُلَّت
من التركيز المألوف في الماضي لكل الأشياء الأثرية المكتشفة في
متحف الآثار المصرية بالقاهرة وأعطت صورة جديدة للشعب
حول ماضيه .

وبجانب المتاحف الإقليمية العديدة من أسوان حتى
الاسكندرية يقوم مشروع كبير لإنشاء مَبْنَتَيْنِ جديديين
أحدهما لتحف بلاد النوبة في أسوان والثاني للمتحف القومي

لم يرَ علم الآثار المصرية ، أي علم مصر القديمة ، النور إلا منذ
١٦٣ سنة . ففي عام ١٨٢٢ وُفِّق العلامة الفرنسي «جين
فرانسوا شامبلون» في حل رموز الأحرف الهيروغليفية التي
طواها النسيان منذ ما يقرب من ١٥٠٠ عام وقدم بذلك
المفتاح لفهم التاريخ والحضارة والديانة المصرية القديمة .
وعقب ذلك بثلاثين سنة توطَّد دعائم علم الآثار المصرية في
فرنسا وألمانيا كفرع جامعي ، واليوم يتفرع للاهتمام بهذا
العلم حوالي ٦٠٠ عالم بالجامعات والمتاحف ومعاهد الأبحاث
في ثلاثين دولة من دول العالم . وتقوم ١٥٠ بعثة كل عام في
مصر بالتنقيب عن الآثار والمساحة والتوثيق والترميم في
حقل الأبحاث الأثرية .

في عام ١٩٧٦ فقط إنعقد لأول مرة في القاهرة مؤتمر دولي
لعلماء الآثار المصرية حضره حوالي ٣٠٠ عالم ، لكي يتبادلوا
وجهات النظر في المشاكل والمشاريع المشتركة . وإنعقد مؤتمر
علماء الآثار المصرية الدولي الرابع في ميونيخ في الأسبوع
الأخير من شهر أغسطس (آب) عام ١٩٨٥ . وأُلِّق ما يربو
على سبعمائة مشترك ثلاثمائة محاضرة علمية في ستة أيام
وناقشوا في عشرين مجموعة قضاياهم وتجاربهم . وقد ظهر
بوضوح أكثر من الأعوام السابقة أن علم الآثار المصرية اليوم
لم يعد فرعاً واحداً ، بل إنه يمثل حشداً من التخصصات
الفرعية المختلفة ، يربط بينهما جميعاً موضوع الدراسة المشترك
والحقبة الزمنية والنطاق الجغرافي لأبحاثنا . ومع ذلك فإن
علماء الآثار المصرية مصمومون على ألا يَفْرِطُوا في وحدة هذا
الفرع .

وقد تركز نشاط المؤتمر ، الذي انعقد تحت شعار «علم الآثار
المصرية للتسعينات» ، على مستويين هما : أولوية البحث خلال
الأعوام القادمة وإستخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة ،

للحضارة المصرية في القاهرة . وشكّلت من أجل المشروعين هيئة دولية من المتخصصين بإشراف منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) والجلس الدولي للمتاحف (الإيكوم) ، حيث تقوم هيئة الآثار المصرية حالياً بتطبيق توصياتها عند التصميم النهائي للمتحنين . ويتوجب على الجمعية الدولية لعلماء الآثار المصرية أن تقدّم نتائج أعمالها وخبراتها إلى المنشآت التنظيمية والمشروعات الطويلة الأجل التي قام الجانب المصري بإعداد إطارها .

ولا يكون الاستخدام الفعال للطاقة العلمية المتاحة ممكناً إلا إذا استعان علم الآثار المصرية بالطرق والأساليب الحديثة التي قامت الفروع الأخرى بإنجازها . ولذلك فقد وجه المشتركون في المؤتمر اهتماماً خاصاً إلى قسم الحاسبات الالكترونية الذي يُعنى بالتدوين والمعالجة الالكترونية لنصوص الآثار المصرية وقُوِّمت عدة طرق لكتابة الهيروغليفية بواسطة الحاسبات الالكترونية وتم شرحها في التطبيق العملي . وتُسْتَغَلّ المعالجة الالكترونية للمعلومات بدرجة متزايدة أيضاً في إعداد فهرس الكتب والمراجع ، وقد استُخدمت فعلاً في عدة متاحف كجهاز لتقديم الآلي للمعلومات المتعلقة بالآشياء المعروضة .

ويكشف التعاون بين المتخصصين في حقبة ما قبل التاريخ وبين المتخصص في الأنثروبولوجية عن معلومات هامة بالنسبة إلى حقبة ما قبل التاريخ في مصر والتي لم يُكتب عنها شيء ، ونفس الشيء يقال أيضاً عن البحث العلمي المتعلق بفن الخزف الذي قام بفحص كليات الخزف الهائلة الموجودة في مواقع الاكتشاف .

وكانت مشاركة أعضاء المؤتمر في مجموعة العمل الخاصة بتاريخ الفن كبيرة إلى درجة ملحوظة . وقد أبرز ذلك أهمية فن مصر القديمة كوسيلة لإعلام قوية الدلالة ؛ ولفترة طويلة لم يكن الفن المصري يُستخدَم إلا ك توضيح للمقالات التاريخية والتاريخية الدينية . ولغير المتخصص بالذات يُقدّم الفن المصري أكثر المداخل مباشرة إلى الحضارة المصرية ويحتاج لهذا السبب إلى أسس علمية متقنة بصفة خاصة .

ويشكل إعلام الجمهور بهام وخطط علم الآثار المصرية جزءاً أساسياً من مؤتمر علماء الآثار المصرية الدولي الرابع . وقد نُظمت أربعة معارض خاصة بمناسبة هذا المؤتمر . فقد عُرضت بالمتحف الألماني لتاريخ الطب في إنجولستيت عيّنان من طب

المصريين القدماء الذي يؤسس في بعض نواحيه المرحلة القهيدية المباشرة للطب اليوناني والبناني للطب الغربي . وفي معرض ميونيخ تم لحص الموميا المصرية القديمة بأحدث الوسائل التكنولوجية . وقد أتاحت هذه الفحوص إعادة تكوين صورة عن الهيكل التوزيقي لمعدلات أعمار الشعب المصري القديم وعن نمط معيشته ، وكذلك معرفة الأعراض المرضية التي كانت تُعترّبه وطرق معالجتها ، وتكشف لنا عن ممارسات دينية مثيرة للاهتمام ، مثل إستبدال الأحياء المتزوعة من بدن الميت بتأثيل صغيرة للألّة مصنوعة من الشمع . كما عُرضت رسوم أصلية خاصة بالبعثات الاستكشافية التي قام بها العلامة كلرل ريتشارد ليسيوس من عام ١٨٤٢ حتى عام ١٨٤٥ في مصر والسودان بتكليف من ملك بروسيا . وساهمت في إثراء معرض ليسيوس معروضات لصور فوتوغرافية إلتقطها رائد فن التصوير الفوتوغرافي ج . أ . لورينت ، الذي زار مصر من عام ١٨٥٨ حتى عام ١٨٦٠ وسجل بلفظاته ذات القطع الكبير لآثار وفنون معمارية إسلامية وفرعونية شاهداً لا يُقدّر بثمن لأعمال فنية إندثرت اليوم . وقد حظى معرض «الاكتشافات» ، الذي عُرض فيه فن مصري أُستُعيدت تُحفّه من مجموعات ألمانية جنوبية مختلفة قليلة الشهرة ، باهتمام خاص من جانب العلماء الذين وفدوا إلى المؤتمر في ميونيخ ، وشهد إقبالاً كبيراً من الجمهور المهم بمصر اهتماماً فائقاً . وأظهرت تأثيل صغيرة وأواني وأشكال برونزية وتماثيل ذات نوعية فنية عالية ، البراعة الفذة للفنانين المصريين القدماء في تمثيلهم لعالم متآلف منسجم . ولا تستطيع وسيلة أخرى خلاف الفن أن تعبر هكذا بصورة مباشرة عن أهمية مصر القديمة بالنسبة للإنسان الحديث .

لقد كان الاهتمام الكبير الذي قوبل به هذه المعارض بمثابة دعوة للمشاركين في مؤتمر علماء الآثار المصرية الدولي الرابع في أن يستحثوا قُدماً إستكشافاتهم لحضارة مصر العتيقة بعزيمة وتناؤل ، وبمثابة تنبيه لجيلات المسئولة عن تمويل أبحاث علم الآثار المصرية لكي تني بالتزاماتها نحو الحفاظ على هذا التراث ومساعدة مصلحة الآثار المصرية في أداء واجباتها الجليلة .

لقد أثبت هذا المؤتمر أنه يحق لنا أن نتفاءل بمستقبل علم الآثار المصرية .

ملاحظات حول المؤتمر السادس عشر للعلوم والدراسات التاريخية

وبما أن شتوتجارت ليست موطن هيجل والمدينة التي قضى فيها شتاوفنبرج Stauffenberg (الرأس المخطط لانقلاب ٢٠ يوليو/تموز ١٩٤٤ ضد هتلر) شبيهة لغسب، بل هي أيضاً عاصمة سيارة المرسيدس، فقد قام عدد كبير من الحاضرين ببحث تاريخ السيارة منذ قرن وتأثيراتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

ومن بين المواضيع الرئيسية الأخرى التي نوقشت في المؤتمر موضوع تاريخ الثقافة لدى الأقليات والمغتربين والمهاجرين وبالأذات الهامشين، أي تلك المجموعات التي لم تتمكن من صنع تاريخها أو من البحث فيه وأريد لها العيش في عالم بارد وصامت. إلى جانب ذلك خصص المؤتمر يومين لبحث موضوع علم التاريخ ولمناقشة ما يسمى بالتاريخ السردى والتاريخ البنيوي. كما اهتم المؤتمر بدراسة أعمال ماكس فيبر Max Weber باعتبارها تمثل منهجية جديدة وتطوراً في الفكر التاريخي العالمي.

والذي ألفت الانتباه في هذا المؤتمر إنحسار الماركسية في الدراسات التاريخية بعد أن كانت مسيطرة سيطرة كبيرة حتى على المؤرخين الليبراليين. والسبب هو أن الماركسية ذبلت ذبولاً كبيراً في البلدان الشرقية كما أنها فقدت تأثيرها على المثقفين في البلدان الغربية ولم تعد الطريقة الأمثل لدراسة شؤون المجتمعات ومسائل التاريخ.

وبالرغم من أن التراث العربي يزخر بالدراسات التاريخية العظيمة تشهد بذلك أعمال الطبري والمسعودي وابن خلدون وغيرهم فإن المشاركة العربية كانت ضعيفة للغاية. ولم يتمكن المؤرخون الذين قدموا من تونس ومصر والعراق والمملكة المغربية من سد الفراغ. غير أن المؤتمر كان بالنسبة لهم هاماً إذ أنه سمح لهم بأن يستفيدوا من الدراسات المقدمة ومن أن يطرحوا وجهات نظرهم في العديد من القضايا المتعلقة بمحضرتهم وأيضاً في المسائل المتعلقة بعلم الآثار وبالفيلم كمصدر جديد من مصادر التاريخ.

ولا بد أخيراً من الإشارة إلى الدور الفعال الذي قامت به رابطة المؤرخين الألمان في التنظيم وفي إقامة أنشطة ثقافية ورحلات علمية على هامش المؤتمر. (حبيب جنحاني)

أكثر من ألي مؤرخ من تسعة وخمسين بلداً حضروا المؤتمر السادس عشر للعلوم والدراسات التاريخية الذي انعقد في مدينة شتوتجارت من ٢٥ إلى ٣١ أغسطس (آب) ١٩٨٥ تحت إشراف رئيس جمهورية ألمانيا الاتحادية. وقد لقي هذا المؤتمر العالمي الهام عناية كبيرة من طرف المؤسسات العلمية الألمانية. كما أنه أبرز اهتمام علماء التاريخ المتزايد بالمسائل الكبيرة التي تشغل عصرنا.

ومن الطبيعي أن يكون عدد المؤرخين الألمان هو الأكثر باعتبار أن بلدهم هو المضيف. أما جمهورية ألمانيا الديمقراطية فقد أرسلت خمسين مؤرخاً. وكان هناك تسعون من المجر وخمسة وسبعون من بولونيا وستون من رومانيا وأثنان وسبعون من الاتحاد السوفياتي. ويمكن أن نقول بأن الحضور المكثف للمؤرخين من الشرق الأقصى وبخاصة من الصين واليابان وكوريا الجنوبية هو من أهم ما يميز به هذا المؤتمر. غير أن المساهمة الأوربية كانت كبيرة.

أحد المشاركين الألمان قال مازحاً بأن المؤتمر يشبه بمعرض ضخّم يعرض فيه المنتجون سلعم على الناس. وهذه الملاحظة صحيحة إلى حد كبير، إذ أن الدراسات والبحوث التي قدمت كانت حية وجديدة شكلاً ومضموناً. حتى المؤرخين المختصين في المسائل المتعلقة بالعصور القديمة أبدوا اهتماماً بالغاً بمسائل هذا العصر والعديد من المواضيع التي تطرقوا إليها متصلة اتصالاً مباشراً بما يحدث حالياً في العالم.

وقد تناولت البحوث مواضيع كثيرة تدور حول التاريخ البيزنطي وتاريخ البحار والثورة الفرنسية والحرب العالمية الثانية، وتدور بالأذات حول علم المساييس. ونناقش المشتركين في المؤتمر جملة من المسائل الأخرى، مثل علاقة المواطن بالأدارة والصلة بين ثقافة النخبة وثقافة الشعب وبين الأشكال الديبلوماسية قديماً وحديثاً. بل أن البعض منهم مثل المؤرخ الفرنسي إيمانويل لورو لاديري Emmanuel Le Roy Ladurie ذهب إلى حد طرح مفهوم التسامح عبر مختلف العصور. وكانت ذكرى انتصار الحلفاء في عام ١٩٤٥ أحد المواضيع الرئيسية التي بحثها المؤتمر. وقد خُصص يوم كامل لدراسات شارك في إعدادها أكثر من خمسمائة مشارك وتناولت مواضيع تتعلق بالمقاومة ضد الفاشية والنازية وبتاريخ اليابان إبان الحرب العالمية الثانية.

حول الملتقى الثالث والعشرين للمستشرقين الألمان

الموجه الى المتصوفين ، بينما تكلم إ . ماير (كولونيا) حول موضوع «العدالة عند ابن رشد» .

وفي محاضرة ذكية بارعة عالم بيتر باجن (غوتنجن) نقوصاً لابن عربي صيغت فيها شروح وتفسيرات صوفية قرآنية في قوالب شعرية على جانب كبير من الروعة والجمال الفني ، بينما أثبت أولريش مارتزولف (كولونيا) وشتيفان ليسدر (فرانكفورت) في محاضرتين حقيقة انتعاش الأساليب الثرية القديمة في النتاج الأدبي العربي . وألقى باحثان أعضاء جديدة على حقول مهملات من البحث ، فتحدث هارالد مونسكي (هامبورج) حول الفتاوى كصدر تاريخي (ابنهاوزن) حول الأحزاب السياسية في مصر المعاصرة .

وخصصت محاضرتان لموضوع الاسلام في نيجيريا ، فقدم جميل أبو النصر (بأبرويت) شرحاً للنقاش الدائر حول تطبيق الشريعة في نيجيريا ، بينما قدم شتيفان رايشموت تقريراً حول التعليم العربي الاسلامي في جنوب البقاع السلافية ، وتحدث قرون إقبال عن رحلة سرية الى البرازيل قام بها الموفد الديبلوماسي الفارسي مرزا أبو الحسن خان شيرازي عام ١٨٦٠ . ولم يُحرم الأدب العربي الحديث من نصيبه أيضاً ، فقد قدم فولف - ديتير ليكه (بيروت) الشاعر المصري أمل دنقل (١٩٤٠ - ١٩٨٣) ، الذي يكاد يكون مجهولاً في ألمانيا وتحدث د . ناجي نجيب عن موضوع «فقد الأب» في الرواية المصرية المعاصرة .

والخلاصة : فان الاستشراق الألماني أخذ يغادر برجه العاجي ، يخطى وثيدة ، ولكن بكل تأكيد .

شتيفان فيلد (بون)

انعقد في مدينة فورسبورج Würzburg ما بين السادس عشر والعشرين من سبتمبر (أيلول) الماضي المؤتمر الثالث والعشرون للمستشرقين الألمان . وفي هذا المؤتمر ، الذي ينعقد مرة كل ثلاث سنوات في العادة ، اتضح من جديد مدى الاهتمام العلمي الواسع الذي أصبح يولي للشرق الأدنى في حقل الدراسات الشرقية في العقود الأخيرة . وكما جرت العادة ، فقد دُعِيَ ضيوفٌ أجانب ، كما أقيمت محاضرات باللغتين الانجليزية والفرنسية ، بينما كان اشترك العلماء والباحثين العرب ، مع الأسف ، أقل بكثير مما كان عليه الحال في المؤتمرات السابقة .

وفي القسم الخاص «بالشرق الاسلامي» ، وهو أقوى أقسام المؤتمر عموماً ، قدم العلماء أحدث نتائج أبحاثهم . وقد تعادلت في ذلك المواضيع المتعلقة بالعصر الكلاسيكي مع الأبحاث الخاصة بالقرنين التاسع عشر والعشرين . وكان أبرز الضيوف بدون شك رئيس وزراء ايران السابق ، الدكتور مهدي بزرگان ، الذي تحدث عن طريقة جديدة للترتيب الزمني للسور والآيات المكية والمدنية .

وقد جاءت الدراسات الدقيقة للمصادر المعروفة حتى الآن بنتائج مذهشة مفاجئة : إذ طرح أولريش هارمان (فرايبورج) في معرض دراسة سيرة العالم أبي الحامد القدسي (٨٨٨ هـ/١٤٨٣ ميلادية) سؤالاً ساخراً لخواه : «أيهما أشد عبثاً على النفس : الحكم المستبد الجائر أم غطرسة زملاء الحرفة ؟» وكشف ميشائيل كولر (هامبورج) النقاب عن مظاهر جديدة من التعاون بين الفاطميين والصليبيين : «الفضل والقدس - ماذا توقعت مصر لنفسها من وعد من الحملة الصليبية الأولى ؟» وتحدث ب . رادتكه (بازل) حول النقد

والأوربية من داخل وخارج المنطقة. كما أسس وحدة خاصة للتوثيق تابعة له أسماها «مركز التوثيق للشرق المحبست Dokumentationsstelle Mordern Orient» وقد بدأت هذه الوحدة عملها الفعلي في ١/مايو (أيار) ١٩٦١. ومنذ البداية كان النشاط التوثيقي يتجاوز دائرة الحاجة للمعلومات الاقتصادية ويتعدى إلى الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية. ومنذ البداية أيضاً بدأ المعهد في سنة تأسيسه (١٩٦٠) بإصدار المجلة الفصلية «أوريشت» ORIENT التي تطورت بمرور الزمن لتصبح المجلة العلمية الرئيسية في ألمانيا المتخصصة بقضايا الشرق الحديث. ومن الناحية العلمية والأدبية، وهي ناحية تؤثر في نوعية واتجاهات العمل، يمكن تقسيم تاريخ المعهد إلى فترتين مختلفتين: الفترة الأولى تمتد من ١٩٦٠ - ١٩٧١ والفترة الثانية تمتد من ١٩٧١ - ١٩٨٥. الفترة الأولى تتميز بالاندماج الكلي لجمعية الشرق الأدنى والأوسط تنظيمياً وإدارياً، حيث كانت الإدارة الموحدة بيد الدكتور إيرشت - «أوغوست مسرشميدت Messerschmidt» الذي كان في الغالب ألماناً رجل اقتصاد. في هذه الفترة كان نشاط المعهد يتركز على دراسة المشاكل الاقتصادية لبلدان المنطقة وعلى العلاقات التجارية والتعاون التنموي بين ألمانيا وهذه البلدان وكان هذا الشرط يتناسب مع الحاجة الملحة للمعلومات الموضوعية الموقفة عن الأنظمة والمجالي الاقتصادية وتطورها، وأن لم يكن في استطاعته من تلك الفترة الكبيرة كلاً المشتملة بالعالم شبه الكمال لهذا النوع من الدراسات في الساحة الألمانية. ومكّاه أصدر المعهد كتاباً موسوعياً عن الاقتصاد وتطوره في بعض أقسام المنطقة بين أفغانستان (١٩٦٦) ومصر (١٩٦٧) وباكستان (١٩٦٧) والعراق (١٩٦٩) ولبنان (١٩٦٩) كما نشر أبحاثاً ومقالات عن مواضيع معينة مثل مكافحة الأمية في إيران (١٩٦٦) والاشتراكية الجزائرية (١٩٦٩) والعلاقة بين الاشتراكية العربية والاشتراكية (١٩٦٩) وعن الاقتصاد الاشتراكي العربي والنظام الدستوري في مصر (١٩٧٠) وعن التعاونات الزراعية في باكستان. ومع هذا التركيز الشديد على المواضيع الاقتصادية لم يخلو نشاط المعهد كلاً من المواضيع السياسية والاجتماعية. فقد أصدر المعهد مثلاً في عام ١٩٦٧ دراسة علمية شاملة تحتوي على ٣٤٥ صفحة عن مشكلة حدود عدن في قضية الجنوب العربي وتطورها التاريخي من ١٩٠٠ إلى ١٩٦٧. وقبل ذلك كان نفس المؤلف (الدكتور أولريش غريكه) الذي كان يعمل في المعهد قد نشر في عام ١٩٦٣ دراسة تاريخية مفصلة من ٣٥٢ صفحة عن نشوء الدولة العربية وتحديد حدودها ومشاكل الحدود مع البلدان المجاورة.

في عام ١٩٧١ توفي المبرر المشترك المعهد والجمعية الدكتور مسرشميدت. وكانت وفاته بمثابة نقطة انطلاق في تاريخ المعهد، ذلك لأن كلاً كانت مساهبة لإجراء تغييرات جوهرية في التوجيهات التنظيمية والإدارية والقانونية للمعهد. هذه التغييرات كانت ضرورية لتطوير المعهد وزيادة اهتمامه بالمواضيع السياسية والثقافية المعاصرة بعد أن ازدادت أهمية منطقة الشرق الأدنى والأوسط في السياسة الدولية بعد حرب حزيران ١٩٦٧. بعد أن بدأت عملية تبلور سياسة للمعهد لتلبية اتجاه تلك المنطقة، أهم تغيير كان فك التشابك التنظيمي مع جمعية الشرق الأدنى والأوسط وتحقيق الاستقلال القانوني والإداري للمعهد ووضع بعض الطرقات أمامه للتركيز أكثر فأكثر على البحث العلمي والأكاديمي الذي يخدم الصالح العام ويقول كلاً من قبل الدولة. ومع هذا التغيير تعزز إنشاء المعهد إلى «مؤسسة المعهد الألماني لدراسات ما وراء البحار» التي تضم إلى جانب معهد الشرق الأدنى والأوسط في السياسة الدولية بعد حرب حزيران ١٩٦٧. ومع أن ناهية الميزانية السنوية تشكل وحدة ادارية، كما تقوم بتنسيق نشاطاتها في بعض المجالات. جميع هذه المعاهد تقع في مدينة هامبورج في أبنية مجاورة.

ومن الناحية القانونية تم وضع المعهد على قاعدة مستقرة عندما التزمت حكومة ولاية هامبورج والحكومة الاتحادية في بون بتبويل المعهد كلاً، وهو مؤثر لزيادة

يحتفل معهد الشرق الألماني في هامبورج في هذا العام (١٩٨٥) بعيد ميلاده الخامس والعشرين، وهي مناسبة جيدة لإلقاء الضوء على هذا المعهد الذي يلعب دوراً متميزاً في تطوير العلاقات الألمانية مع بلدان الشرق الأدنى والأوسط.

من المعلوم أن عدد وحجم ووظائف معاهد الأبحاث التي تعمل في دولة صناعية معينة والتي تختص بدراسة منطقة معينة من العالم تتناسب مع حجم وتنوع النشاط السياسي والاقتصادي والثقافي التي تربط هذه الدولة الصناعية بتلك المنطقة. ومن المعلوم أيضاً أن هذه المعاهد تتأثر وتؤثر بسياسة الدولة المصنعة وتطورها.

والألمانيا كان تشد على هذه القاعدة العامة.

بعد عزة لألمانيا في الحرب العالمية الثانية وتقسيمها تصادف نشاط الباحثين الألمان المنقطع بالفضاء السياسي والاجتماعي لبلدان الشرق الأدنى والأوسط وتراجع نشاط المستشرقين ليحصر في المواضيع الأدبية والتاريخية والأثرية. ولم تكن هناك في المراحل الأولى بعد تأسيس جمهورية ألمانيا الاتحادية (١٩٤٩) أبحاث لعلومها السياسية والاقتصاد الألمان تتعلق بقضايا الشرق الحديث، ذلك لأن فضائياً العالم الثالث لم تكن في ذلك الوقت تلمح دوراً مهماً في السياسة الألمانية، ولأن الأبحاث الألمانية كان يتركز على إسماع ما مرته الحرب وعلى معالجة قضية الوحدة الألمانية وبناء نظام سياسي اجتماعي جديد في ألمانيا. ومع هذا الحال حتى في السنوات التي تلت استرجاع جمهورية ألمانيا الاتحادية لسيادتها في ميدان السياسة الخارجية يوجب اشتغالاً بباريس ١٩٥٥.

ولكن الوضع بدأ يتغير بصورة جوهرية منذ نهاية الخمسينيات حيث بدأت السياسة الخارجية الألمانية تتخفف من كرهها الشديد على فضائياً النزاع بين الشرق والغرب وفضائياً الوحدة الاقتصادية وتوسع دائرة عملها لتشمل مجالات أخرى من السياسة الدولية وخاصة مشاكل الكتل. لذلك نشأت حاجة كبيرة إلى دراسات موضوعية عن البلدان النامية. وكانت هذه الحاجة تزداد بسبب اتساع العلاقات الاقتصادية الألمانية مع العالم الثالث ومنه المنطقة العربية.

وفي الحقيقة فإن الأبحاث الألمانية بمنطقة الشرق الأدنى والأوسط حتى أواسط الستينات يتركز على العلاقات التجارية والاقتصادية. وهذا الاهتمام مرتبط من جانبه بتضاعف أهمية التجارة الخارجية بالنسبة لتطور الاقتصاد الألماني وحياة المواطنين. فلا عجب إذن أن تكون أولى المؤتمرات التي أنشئت لدراسة وتطور علاقات ذات طبيعة اقتصادية وأن تأتي المبادرة لتأسيس معهد الشرق الألماني من الأساطير الاقتصادية. فقد تم تأسيس أول غرفة تجارية مشتركة في كانون أول ١٩٥١ وهي غرفة التجارة الألمانية المصيرية في القاهرة، تبعها تأسيس غرفة التجارة الألمانية الإيرانية في عام ١٩٥٢. وقد سبق هذه المحاولات تأسيس جمعية الشرق الأدنى والأوسط في شباط ١٩٥٠ من قبل عدد من الشركات الألمانية العاملة في الشرق الأوسط. وعلى يد جمعية الشرق الأدنى والأوسط هم في مايو (أيار) ١٩٦٠ تأسيس «مؤسسة الشرق الألمانية» و«معهد الشرق الألماني». وقد أوضح رئيس الجمعية آنذاك الدكتور أوفر، توبيغفر في خطابه في حفلة التأسيس التي أقيمت في ١٤/يونيو (حزيران) ١٩٦٠ في فندق أتلانتيك ضرورة إنشاء مثل هذا المعهد الذي سيجعل على سه الفترة الكبيرة التالية في دراسة التطورات المعاصرة لمنطقة الشرق الأدنى والأوسط، كما أوضح الوظائف الأساسية للمعهد التي تشمل في رعاية وتطوير العلاقات بين ألمانيا الاتحادية وبلدان الشرق في المجالات الاقتصادية والثقافية والسياسية، وأشار أيضاً إلى الأثر المحفود على المعهد «يصلح مركز أبحاث رائد تشتمل على عدة فروع علمية لدراسة القضايا المعاصرة للمنطقة الواقعة بين شمال إفريقيا وباكستان». وقد تم تثبيت هذه الأهداف في النظام الداخلي الأول لمؤسسة الشرق الألمانية الذي صادق عليه حكومة ولاية هامبورج بتاريخ ٨/مايو (أيار) ١٩٦٠.

أما على الصعيد العلمي فقد قام المعهد بتكوين وتطوير مكتبة وأرشيف وباقتناء عدد متزايد من الكتب والمجلات المتخصصة والجرائد اليومية بالغات الشرقية

أعمال الدولة والجمع بقضايا الشرق الأوسط المعاصرة من جهة والموقع المتميز الذي وصل إليه العهد في الإسقاط العلمية والسياسية من جهة أخرى .

بعد هذه التغييرات اتسع نشاط العهد في مجالات البحث والتوثيق والإعلام بصورة ملحوظة واتسعت شبكة علاقاته بؤسات الأبحاث في الداخل والخارج وازادت أعداد مشوارهات وتحسنت نوعية النتاج العلمي وتطورت مجلته «أورينت» من ORIENT في حيث النوعية والجهد لنصيح نحو الحقبة الرئيسية المتخصصة في ألمانيا ولتستقطب أبحاث كبار العلماء ولتكتسب بذلك سمعة علمية على المستوى العلمي .

هذه التطورات لا تعني نوعاً في الأهداف السياسية للعهد أو في منطقة اختصاصه وإنما تحسناً في الأداء . منطقة الاختصاص هي منطقة الشرق الأدنى والأوسط التي تشمل جميع الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية ولسطين وإسرائيل وقبرص وتركيا وإيران وباكستان وأفغانستان . أما الأهداف الأساسية فقد تم تثبيتاً جديداً في دستور «مؤسسة الشرق الأمانية» الجديد الذي أقرته حكومة هامبورغ بتاريخ 5/فبراير (شباط) ١٩٧٦ والذي تنص مادته الثانية على ما يلي :

«هدف المؤسسة هو تطوير وتعميق العلاقات بين جمهورية ألمانيا الاتحادية ودول وشعوب الشرق الأدنى والأوسط وفي مجالات العلوم والاقتصاد والثقافة والسياسة . لتحقيق هذا الهدف ترمي المؤسسة مبدئياً للأبحاث تخصص بدراسة القضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للشرق الحديث .

في إطار أحكام هذا الدستور توسع مجلس إدارة العهد إلى سبع شخصيات ومجلس أمنائه إلى ثمانية عشرة شخصية تضم شخصيات بارزة من أهل العلم والاقتصاد والسياسة .

أما بالنسبة للأولويات فقد بقيت المواضيع الاقتصادية تصدر أعمال العهد . وكان هذا الاهتمام في الفترة ١٩٧٢ - ١٩٨٥ يتصب على تحليل الأنظمة الاقتصادية والثقافة وصورت السياسة الاقتصادية وكيفية تطبيقها في الواقع العملي والمواقف الإيجابية والسلبية في هذه النظريات والتطبيقات وكذلك على معالجة المشاكل الاقتصادية الراهنة . سواء أكان ذلك على مستوى القطاعات أو الأنظمة المفردة أو مجموعة معينة من البلدان أو المنطقة كلاً أو لولاياتها الاقتصادية بتناطخ العالم الأخرى . من الدراسات الاقتصادية التي تتعلق بقطر واحد ذكر على سبيل المثال كتاب عزيز الفراز عن «تطور الاقتصاد العراقي - استراتيجية البعث في التطبيق» (كتاب صدر عام ١٩٨١ وكتاب توماس كوشينوفسكي عن «العربية السعودية قوة نفطية وبلد نائي» (١٩٨٢) وكتاب منير الدين أحمد وكورت إيتز عن «جمهورية السودان - الدولة والسياسة والاقتصاد» (١٩٨٠) وكتاب فولفغانغ - بيتر شينغل عن «باكستان في عقده الرابع» (١٩٨٤) . أما بالنسبة للدراسات القطاعية فيمكن الإشارة على سبيل المثال إلى الدراسة التي أصدرها العهد عام ١٩٧٦ عن «قطاع النقل ومشاكله في بلدان الشرق العربي وإيران» وكتاب هازر بورغن فلييب عن «التحديات وأثرها في العربية السعودية في القرن العشرين» (١٩٨٤) ودراسة عزيز الفراز وأرنولد علي عن «قطاع المصارف في المنطقة: هيكله وأهميته الاقتصادية» (١٩٨٥) . ومن الدراسات التي تتعلق بمصوم البيئة تذكر كتاب عزيز الفراز عن مساهمة التنمية العربية العلم الثالث ومؤسساها الذي صدر عام ١٩٧٧ وكتاب «مشاكل التنمية في البلدان العربية المصدرة للنفط» الذي أصدره العهد في ١٩٧٧ أيضاً . أما الأبحاث التي أجراها العهد عن العلاقات الاقتصادية بين المنطقة (وخاصة الأنظمة العربية وتركيا وإيران) من جهة وأوروبا وألمانيا واليابان من جهة ثانية فقد نشرت غالباً في المجلات العلمية المتخصصة في كتب عممة تشمل مواضيع ومناطق أخرى . هذا وتشمل أبحاث العهد أيضاً علاقة الإسلام بالاعتقاد من الناحية النظرية والتطبيقية . فقد كتب عزيز الفراز عن المصارف الإسلامية في المنطقة العربية وعن أسئلة النظام المصرفي في باكستان .

ومن الجدير بالذكر أن علاقات التعاون بين العهد ومعاهد الأبحاث الاقتصادية في ألمانيا قد توسعت في الآونة الأخيرة ، لا سيما بعد افتتاح أقسام متخصصة بالشرق الأوسط في بعض الجامعات (مركز جامعة برلين الحرة / برلين وإيس) وجامعة إرفانغن في نورنبرج وجامعة الرور في بوخوم (فولكر نيهاوس) .

كافي الميدان السياسي الذي ازدادت أهميته في الفترة الثانية فقد قدم العهد عدداً متزايداً من الدراسات المتعلقة بالسياسات الداخلية والخارجية لبلود المنطقة وتطور علاقات القوى الدولية بهذه الدول . وكذلك عن التغيرات الديمقراطية والفكرية في المنطقة . وكان التعليم في السياسة الداخلية يتركز على القضايا الأساسية كذلك التي عولجت مثلاً في كتاب غيرارد دوير عن «العسكر والتغيير في تركيا للفترة ١٩٤٥ - ١٩٧٣» الذي أصدره العهد عام ١٩٧٨ . وكتب ميشال لغزون عن «السياسة في إسرائيل» (١٩٨٣) . وكتاب أحمد إيفين عن «تركيا الحديثة - الاستمرارية والتغير» (١٩٨٤) . وكتاب إكهارت إيرينغر عن «التسليح والاقتصاد في منطقة الخليج» (١٩٧٨) . وقد عولجت التطورات الداخلية في كل أنظار المنطقة في مقالات متخصصة أو في دراسات تشمل ميادين أخرى . وفي السنوات الأخيرة ازداد الاهتمام بالدراسات السياسية للإسلام والحركات الإسلامية ، حيث قدم العهد أبحاثاً عن هذه الحركات والتطورات في بعض الأنظمة العربية مثل مصر وسوريا والسعودية وتونس وفي تركيا وإيران وباكستان وأفغانستان . من المنشورات المهمة في هذا المجال نشير إلى كتاب خالد دوران عن «المدور السياسي للإسلام في الشرق الأوسط (١٩٧٩) وكتابه الثاني عن «الحياة الأسلامية وسياسة التنمية» (١٩٨٢) وكتاب فرز رنده وأودو شتاينباخ عن «الاسلام في الوقت الحاضر - تطوره وانتشاره - الدولة ، السياسة ، الثقافة ، الثقافة والدين» (١٩٨٤) وكتاب كارل هامبريش غوبيل عن «الفكر الحديث للشيعة في السياسة والدولة» (١٩٨٤) .

أما في حقل السياسة الخارجية فقد أهد العهد كثيراً بدراسة العلاقات بين أنظار المنطقة نظراً لأهميتها في تخفيف حدة التوتر وحل النزاعات الإقليمية وتقليل أخطار اصطدام المصالحات في المنطقة . لذلك أصدر العهد أبحاثاً عن مشاريع التقارب والوحدة بين أنظار المنطقة . كما بحث في النزاعات الثقافية وتأثيراتها مثل قضية فلسطين ومشكلة الشرق الأوسط ، والحرب العراقية الإيرانية ، والصراع على منطقة الخليج ، ودور مجلس التعاون الخليجي في دعم الاستقرار ، والنزاع بمنطقة القرن الأفريقي ، ومشكلة الصحراء الغربية . وكذلك أهد العهد بدراسة سياسة المسكر الشرقي والمسكر الغربي اتجاه المنطقة وكان دائماً يؤكد على ضرورة قيام المجموعة الأوروبية بدور إيجابي على النزاعات الأساسية في المنطقة . في هذا الصدد نشير فقط إلى دور العهد في الحوار العربي الأوروبي وإلى كتاب كارل كيزر وأودو شتاينباخ عن «العلاقات العربية الألمانية - العوامل المؤثرة فيها ومشاكل وجبة جديدة» (١٩٨١) . وإلى كتاب السيد أوزول غلازون عن «النزاع في الصحراء الغربية وتأثيراته الإقليمية» (١٩٨٢) . وإلى دراسة هاتر ميتس عن «سياسة ليبيا الخارجية» (١٩٨٥) .

أما في الميدان الثالث لنشاط العهد فيتمثل في دراسة التحولات الاجتماعية والثقافية في بلدان المنطقة ، حيث أصدر العهد عدداً من البحوث المتعلقة بالتحول الاجتماعي والعوامل المقرة له وتطور أنطمة التربية والتعليم ومؤسسات التعليم الفني والتدريب المهني . كما نشير فقط إلى الدراسة التي أجراها العهد عن التطور الاقتصادي الاجتماعي وتأثيره على النظام القانوني في العربية السعودية وإلى الأبحاث التي قام بها عزيز الفراز عن أنظمة التعليم الفني والتدريب المهني في الأنظمة العربية والتي نشر بعضها في مجلة «أورينت» .

في كل الميادين الثلاثة المذكورة أعلاه ازداد تعاون العهد مع بعض الجامعات والمعاهد ومراكز الأبحاث المتخصصة الموجودة في عواصم بلدان المنطقة ، نذكر هنا مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأمام في القاهرة ومركز الدراسات الاستراتيجية في عمان/الأردن والجمعية الملكية العلمية في عمان/الأردن ومركز دراسات الخليج العربي في البصرة/العراق ومعهد السياسة الخارجية في القرة وجامة قار يونس في بنغازي/ليبيا .

أما فيما يتعلق بتألق تطور العهد في المستقبل المنظور فتنبأ عوامل عديدة تمتد على التناول منها ازدياد قدرات أعضاء العهد العلمية وازدياد أهمية منطقة الشرق الأدنى والأوسط في السياسة الدولية وفي الاقتصاد العالمي وفي الحوار بين ثقافات العالم . وتخلص ألمانيا تدريجياً من العدائية والتجاهل نحو بلورة سياسة شرق أوسطية جديدة وشاملة .

ملاحظات حول رسوم پاول كلي

ان المعرض الأخير لهذه الرسوم كشف لنا عن «كلي» آخر يكاد يكون مجهولاً إلى حد اليوم . وكما هو معلوم فإنه خلال الخمس وعشرين سنة الأخيرة أصبح «پاول كلي» أكثر شهرة وازدادت أهميته قوة وتأثيراً . وقيل ذلك كان يبدو للناس شيئاً يتصوف منزه في ركنه بعيداً عن صخب العالم أو بأسحر غامض ينتبه في الألوان والحلوط . أما الآن فقد تبينت لنا جميعاً صورة «كلي» المناهض للنحس لطابعه الفن والفنان الواعي بمضلات العصر الحديث وبالأحداث الصغيرة والكبيرة التي كان يشهدها العالم في الفترة التي عاش فيها .

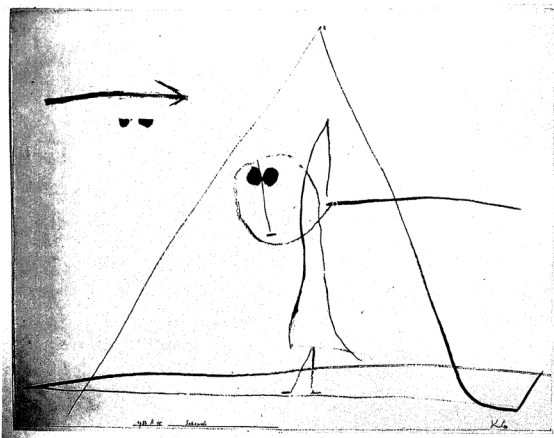
ان الرسوم المعروضة تعكس تلقائياً «كلي» وأيضاً تلك اللحظات الدافئة والمحيمية التي كانت تمر مثل البرق في حياته . وكلها تعود إلى فترة اقامته في Bauhaus . كان كلي فناناً كبيراً ملماً غاماً بفننه حين ناداه فالتر غروبيوس Walter Gropius لكي يدرس في ال Bauhaus . وكان كلي أيضاً متوافقاً مع أهداف وأفكار ال Bauhaus ، ولكنه وجد صعوبة في التوفيق بين الفنان والأستاذ . وما أثار انتباهه في تلك الفترة هو محاولة التوفيق بين العلوم والرياضيات بصفة خاصة - وبين الأحاسيس والانفعالات . ولم يكن ذلك صعباً بالنسبة له وهو العجب والمفتون بالموسيقى الكلاسيكية . ولهذا كانت الكثير من رسومه تذكرنا بيوهان سيبستيان باخ Johann S. Bach وخاصة برائعه Kunst der Fuge . أيضاً بعض التجارب المساحية (قياس السلوح) . وقد طبع كلي ال Bauhaus بطابع معين كما أن ال Bauhaus كان له تأثير كبير على كلي . ولهذا يمكن أن نقول بأن فترة اقامته هناك كانت من أغنى فترات حياته الفنية . ذلك أن ال Bauhaus كان قد لعب دوراً كبيراً في تنشيط الحياة الفنية وفي إعطاء الخلق الفني حياة جديدة .

ملاحظة : ال Bauhaus معهد للبحوث المعمارية والفنية والصناعات التقليدية . وقد أسسه فالتر غروبيوس سنة ١٩١٩ في فايمر Weimar ثم نقله إلى دساو Dessau سنة ١٩٢٥ . وفي سنة ١٩٣٣ تم إغلاقه . وفي سنة ١٩٣٧ بعث من جديد في مدينة شيكاغو الأمريكية . إن هدفه هو الوحدة بين الفن والعلوم والتقنية . وأهم الأساتذة الذين قاموا بالتدريس في هذا المعهد إضافة إلى پاول كلي ، الرسام ليونال فاينينغر L. Feininger وفاسيلي كاندنسكي Wassily Kandinsky والمعماري الكبير ميس فان دير روي Mies van der Rohe .

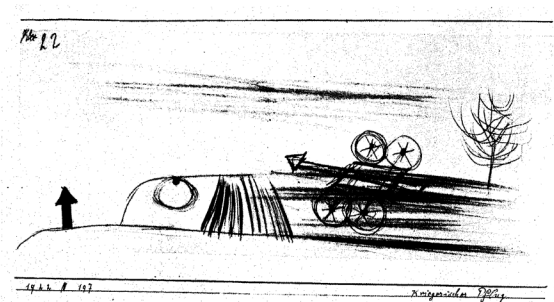
ليس في الأدب وحده وقع التعبير عن تلك الحيرة المشوبة بالقلق والخوف والتي أحس بها البعض خلال القرن التاسع عشر عندما كان التفاؤل طامعاً على النفوس بسبب التطور الصناعي والتقني . فالرسم هو أيضاً كان حاضراً . وقد شارك في التعبير عن ذلك الشعور الذي كان أكثر حدة في أوساط الفنانين والمبدعين بصفة خاصة . ويعتبر پاول كلي واحداً من أكبر الرسامين الرياديين في هذا المجال . وكان وعيه بخاطر العلم على حياة البشرية مبكراً . ولهذا السبب جاءت جل أعماله عاكسة لهذه الحيرة الكبيرة التي انفجرت في ما بعد بأكثر حدة في أعمال السرياليين والوجوديين وأيضاً في روايات وأشعار ما يسمى بالجيل الضائع في أمريكا . ويمكن أن نقول أن عدداً كبيراً من الرسامين التجريديين الذين ظهروا فيما بعد استفادوا من أعمال پاول كلي وكانت أعماله منطلقاً لهم للبحث عن أبعاد أخرى لرسومهم ولوحاتهم . ان كلي يذهب بعيداً في الكشف عن المجهول والخفي والغامض . وهو يرى أن الفن أداة للبحث عن البعد الآخر ولولوج إلى العالم البدائي والمتالي والقديم . فالعالم المرئي والمحسوس ليس العالم الوحيد . انه يكاد يكون طبقة خشنة وغليظة تغطي عوالم أخرى سرية ومجهولة ، كبيرة وصغيرة ، رائعة ومخيفة في نفس الوقت . غير أن پاول كلي يحاول دائماً أن يغمق في رسومه (نقصد الرسم بالقلم) بالرمز به في لوحاته أي الربط بين العالم المحسوس والمرئي وبين العالم الخفي والغامض . وهو يحاول أيضاً أن يجعلهما يتجاوزان وذلك من خلال طريقة تعتمد الصرامة العلمية والشكلانية التجريدية . كان يبتكر أشكالاً ودوائر ومساحات ومضوضاً واقعية ، أي عالماً متكاملًا يعود بنا إلى الجذور الأسطورية والخرافية للكون .

غرقت لأول مرة رسوم پاول كلي في معارض أقيمت في برلين وميونخ وبرين خلال خريف ١٩٨٥ .

واحد من هذه الرسوم يحمل عنوان رسم ويبدو واضحاً أن الرسم كان أكبر كمي وعنصره الأساسي وملاذه حين يبحث ويعلم ويشاهد . تحت الحظ الذي يتعدى دون ملل تلك هناك لا شك ولا دلالة . وتحتوي الأعمال المعروضة على ٤٩٠٠ رسم كان كلي يحتفظ بها لنفسه . ولهذا السبب لم يكتشفها الناس الا عقب وفاته .



بازل مكي : خجل ، ١٩٣٣ .



عمرات حريمي ، ١٩٣٣ .

الأحداث الثقافية في ألمانيا

جوائز أدبية

ألمانيا. وتنتج الجائزة سنوياً إلى كتاب «يعبر عن فكر مستقل ويساهم في تشجيع الحرية الفردية والشجاعة الأدبية والفكرية والفنية، معطياً بذلك دفعات مهمة للوعي المعاصر في الإحساس بالمسؤولية».

حصل هابرماس على الجائزة تقديراً لكتابته الصادر هذا العام بعنوان «الاضطراب الجديد» (دار زوكر روبر للنشر). وهابرماس هو السادس في صف الشخصيات التي حازت على الجائزة حتى اليوم، حصل عليها من قبل كل من رولف هوبوخت، وروبير كونتسه، وفرنتس فيان، وفالتر دير كرس وأانيا روسموس - فيننجر.

مغامرات في اللغة الألمانية

جائزة «أدبرت فون شاميسو» الأدبية هي الأولى من نوعها في ألمانيا الاتحادية، فهي مختصة «لأعمال كتاب لغتهم الأولى ليست الألمانية» وإن كانوا يكتبون بها. وللام الذي تحمله دلالة رمزية واضحة، فخاصة - شارل أدلريد دي شاميسو - كان هو الآخر رجالة متجولاً بين عالمين مختلفين مثله مثل آرآر أورين، ورفيق شامي. فقد هجر وقطنه فرنسا واستقر في ألمانيا ولم يتعلم الألمانية إلا في سن الرابعة عشرة ونشر أهم أعماله الأدبية والشعرية بهذه اللغة الغربية عليه بعد أن غيّر اسمه إلى أدلبرت فون شاميسو.

ولد آرآر أورين باستنبول في سنة ١٩٣٩ وغادروا إلى ألمانيا الاتحادية في عام ١٩٧١ حيث انخرط في صفوف العمال الأتراك. ويعيش أورين الآن ككاتب متفرغ في برلين الغربية. يمثل أورين أدب العمال الأجانب الصادر باللغة الألمانية، واهتمامه مركز على قضية التعايش بين الأجانب والألمان. ومسرح الأحداث في رواياته وأشعاره التي كرويتسبرج في برلين الغربية، وغالبية سكانه من المهاجرين الأتراك الذين نزحوا خلال العشرين سنة الماضية قادمين من قرى تركية ومنهنا وليس في نهبهم إلا أن يقضوا سنوات قليلة في هذا العالم الغريب عليهم، ويعودر السنوات تحول زوحهم الموقت إلى إقامة مستديمة. وهذه الإقامة المستديمة - غير المقصودة - هي الموضوع الرئيسي في طبوغرافية أورين الشعرية.

أما رفيق شامي فهو من مواليد عام ١٩٤٦ بمدشوق وينتمي إلى أسرة من الحرفيين. بدأ رفيق شامي بكتابة في وقت مبكر بتشجيع من والديه ونشر محاولاته القصصية الأولى في مجلة المدرسة ثم في الصحف العادية. شرع مع صديق له من مدشوق أيضاً في تحرير مجلة حائطية باسم «المنطلق»، وظهرت له قصتان في عام ١٩٦٥، الأولى بعنوان «البصلة» والثانية هي «الوردة الحمراء».

حاول رفيق مبكراً أن يوفق بين الأسلوب الوصفي الواقعي القادم من الغرب وبين انعكاسات الواقع الشرقي الذي يعيشه يومياً. فهو يرى أن ذلك الأسلوب الوصفي الملتزم بالواقع عاجز عن التعبير عن هذا الواقع ذاته

(١) قدمت أكاديمية اللغة والأدب في دارمشتات جازيتها السنوية هذا العام إلى الكاتب المسرحي هاينر مولر. وهذه الجائزة المسماة «جورج بوشنر» هي أهم جائزة أدبية في جمهورية ألمانيا الاتحادية. هاينر مولر من مواطني جمهورية ألمانيا الديمقراطية ويبلغ من العمر ٥٦ سنة، وقد منح الجائزة تقديراً لأعماله المسرحية ولنشاطه كخروج المسرح، هذا النشاط الذي هو أيضاً «عائلة يتصدى بها للجنون السائد في عصرنا».

(٢) حاز الكاتب الروائي زيجفريد لنس على جائزة توماس مان من مدينة هامبورج. وكانت هامبورج قد تبرعت بهذه الجائزة بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد توماس مان عام ١٩٧٥ ثم أصبحت هذه الجائزة تمنح كل ثلاث سنوات إلى كاتب «تتبع من بين نبات أعماله الروح الانشائية التي تتميز بها كتابات توماس مان». قدمت الجائزة للمرة الأولى إلى الناقد الأدبي بيتر دي مندلسون مؤرخ حياة توماس مان، ثم إلى الكاتب أوفه يونسون (١٩٧٨) وبعدها إلى الصحفي والمؤرخ يواخيم فيست (١٩٨١).

(٣) أهدت مدينة كولونيا جازيتها الأدبية هذا العام إلى الشاعر الأديب هانس ماجنوس إينسنسبرجر. وإينسنسبرجر البالغ من العمر ٥٥ سنة من رواد الأدب الألماني ما بعد الحرب العالمية الثانية، وقد عالج في العديد من أعماله قضايا العالم الثالث. بدأ إينسنسبرجر هذا العام في إصدار سلسلة جديدة بعنوان «الكتبة الأخرى» يقدم في إطارها الأدباء والكاتب الأجانب إلى القارئ الألماني. (انظر باب «كتب جديدة حول العالم العربي»).

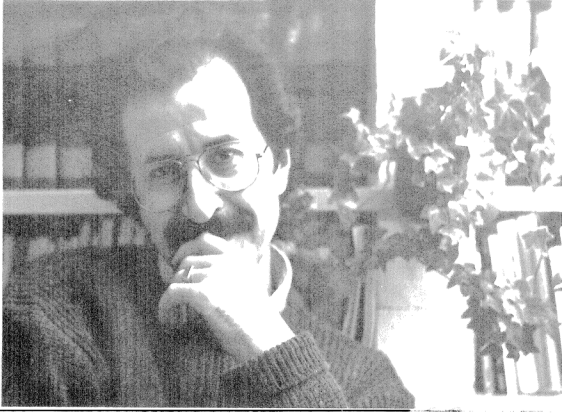
وقد نجحت «الكتبة الأخرى» في إصدار كتاب لفت الأنظار في معرض فرانكفورت الدولي للكتاب، وهو مجلد بعنوان «علامات مائية في الشعر» - أبيات من جميع العصور والأزمنة والبلدان، كتاب مطالعة لكل يوم ولألف ليلة وليلة.

جائزة للأدب الإفريقي

خصصت إذاعة صوت ألمانيا جائزة للأدب الإفريقي حصل عليها لأول مرة هذا العام الكاتب النيجيري أوكي كالو وزميله من السودان الطيب مهدي. والجائزة مختصة للدول الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى. هذا وقد كانت رواية «النهر بين يمين» للكاتب الكيني نجوي فان تيوج على رأس قائمة أفضل الأعمال الأدبية وأكثرها رواجاً المقدمة من إذاعة جنوب غرب ألمانيا في شهر أبريل الماضي، ويشترك في وضع تلك القائمة ٢٥ ناقلاً أدبياً.

جائزة الأخوين شول ليورجن هابرماس

أهدت دور النشر والكتبات في بافاريا جازيتها المقدمة بالاشتراك مع مدينة ميونيخ إلى الفيلسوف سورج هابرماس رائد علم الاجتماع المعاصر في



الحاي رفيق الشامي

وتركيا والبلاد العربية . تغيرت صورة الدولة الوطنية المتجانسة وتغير معها الأدب من خلال «أدب قادم من الخارج» يقدم عنا رؤية مغايرة ومختلفة عن تلك التي نمتلكها حول أنفسنا ويفتح لنا آفاقاً جديدة ننظم بها ما استصغى علينا فهمه الى الآن . إضافة الى ذلك يتيح لنا هذا النوع من الأدب فرصة أن نبي جسوراً بين القارات والثقافات نحملنا الى ضفاف أراضٍ أدبية لم نكتشف بعد .

عندما سئل رفيق شامي عما اذا كانت أعماله هي تعبير عن «استيعاباً فن البقاء على الحياة» أجاب بقوله : « - بالطبع ، فالبلاد العربية هي أرض مجهولة هنا ، وسائل الاعلام مليئة بالأخبار السياسية ، أما جوهرينا الحضاري - ذلك الجزء المكلل للثقافة والمرتبطة بها . فهو مغلف بصمت كثيف» .

ليس «أدب العمال الأجانب هو ما يعنيننا ، شغلنا الشاغل هو الوطن الذي هجرناه ، نمزق به كي يسهل التقارب بيننا .»

باعتقاده ، فلا يقتصر الواقع على الإدراك الحسي التجريبي فقط وإنما يشمل أيضاً أعلامنا وتصوراتنا ورغباتنا . فأصبحت الخرافة أو الأسطورة هي النوع الأدبي المفضل الى نفسه ، يحاول أن يتقرب به الى وجدان القارئ الأثافي .

القضية الأساسية في أعمال رفيق شامي هي قضية الغريب اللامنتهي ، كأن مصير الأقليات شاغله الأدبي ، ففي كل قصصه تتوضح خيرة الانثناء الى الألفية ، يعبر عنها بأساليب الضغفاء في السيطرة على قدرم : التهمك والسخرية ، وذلك الحس المرفه الذي يتميز به الغريب والذي يساعده على المقاومة في مجتمع قاس .

إن جائزة «أدلبرت فون شاميسو» هي أول «محاولة من نوعها للاعتراف بوضع اجتماعي قائم قد غير الكثير من ثقافة ألمانيا الاتحادية ولقائط الحياة فيها خلال العشرين سنة الماضية . نعمي بذلك وجود ملايين الأجانب بين صفوف الشعب الأثافي ، على رأسهم العمال المهاجرين من جنوب أوروبا

كتب جديدة حول العالم العربي

بسام طيبي :

اللام ومشكلة الاستيعاب الحضاري للتغير
الاجتماعي

٢٥٠ صفحة ، دار النشر زور كالم Suhrkamp
فرانكفورت / ماين ١٩٨٥ .

دريس بن محمد الشرحادي :

حياة كلها تقلبات

دونه وترجمه الى الانجليزية بول باولز Paul Bowles

الترجمة الالمانية : آن روت شتراوس Anne Ruth Strauss

سلسلة «المكتبة الأخرى»

من إصدار هانس ماجنوس إيتنسبرجر

دار النشر جرينو Greno

نوردلنجن ١٩٨٥

عبد عبيد :

الرواية الألمانية في العالم العربي

مجموعة «تحليلات ووثائق»

كتب في الأدب الجديد

المجلد ١٨ ، ٣٠٣ صفحات

دار النشر بيتر لاج Peter Lang

فرانكفورت / ماين ١٩٨٤

«المكتبة الشرقية»

تعيد دار النشر بيك C. H. Beck في ميونيخ إصدار سلسلتها
بعنوان «المكتبة الشرقية» ابتداءً من خريف ١٩٨٥ .

تسعى هذه المجموعة الى تقديم أعمال بارزة من الانتاج الأدبي
لشعوب آسيا من الشرق الأقصى الى الشرق الأوسط وشمال
إفريقيا .

وتبدأ المجموعة بكتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ ، يتبعه
«اللس والكلاب» لنجيب محفوظ ثم «أخبار النساء» لابة
القم الجوزية .

كتب مصورة

١ - مصر

النص من إعداد إريكا فونشه Erika Wünsche

والصور ميخائيل شفيريرجر Michael Schwerberger

دار النشر بروكمان Bruckmann-Verlag

ميونيخ ١٩٨٥

من روائع الطرق في تركيا

النص من إعداد مارتين أموده Martin Amode

والصور لفرنر نويماستر Werner Neumeister

دار النشر زودويتشر Süddeutscher-Verlag

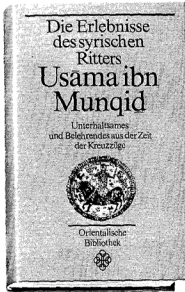
أثوقيلمز / إردموته هيلر

البدو .

١٠٤ صفحات

دار النشر پاول ليست Paul List

ميونيخ ١٩٨٥





صورة غلاف كتاب «البدو» .

مجلات

فولف ديتريش فيشر «لقاءات مع أدب الشعوب الإسلامية في أوروبا»

هنا إردمان «ملاحظات حول جوهر الفن الإسلامي»
فريتس شتات «إسهام الاستشراق الألماني في تفهم الإسلام»

مجلة التبادل الثقافي

السنة الخامسة والثلاثون ١٩٨٥

الفصل الأول

«أل الفرحة في داخلي»

تجربة الهجرة وصورة ألمانيا في الأدب التركي المعاصر .

يصدرها جونت ف . لورنس ويوكسل پارزكيا

نصوص مختارة وصور من رسم فنانيين أتراك مقيمين في
جمهورية ألمانيا الاتحادية .

مجلة التبادل الثقافي
العالم الإسلامي بين التراث والتقدم .

الجزء الأول

السنة الخامسة والثلاثون ١٩٨٥

الفصل الثالث

يصدرها معهد العلاقات الخارجية في شتوتجارت .

مجموعة وثائق عن «نقاش توبنجن السادس حول قضايا

التنمية» ، عُقد في ١٧ و ١٨ مايو ١٩٨٥ .

تتضمن المحاضرات التالية :

هانس كونيخ «المسيحية والإسلام»

جدي عزام «الإسلام بين العقيدة والتصوف»

ماتياس شرام «العلوم الطبيعية في الإسلام وتأثيرها على

الحضارة العربية» .

* * *

مركز علمي جديد للدراسات التركية ببون

٣ - تنظيم وتشجيع التعاون مع الألمان المتخصصين في شؤون تركيا .

٤ - تأسيس مركز المعلومات يتولى تنسيق النتائج البحثية العلمية وتسهيل الإصدارات . وإضافة إلى ذلك تقديم معلومات عن التطورات الاجتماعية والثقافية بتركيا .

ولتأسيس المركز أهمية عظيمة ترجع إلى أن هناك ١٨٤ مليون مواطن تركي أو ٢٥٠ بالمائة من جملة السكان الألمان يعيشون حالياً في ألمانيا الاتحادية . وهؤلاء الأتراك تحولوا ومنذ هجرتهم إلى ألمانيا في غضون الخمسة وعشرين سنة الماضية من عمال مؤقتين إلى مقيمين مستديين . ويشكل ذلك بالطبع مشاكل اجتماعية وسياسية طويلة المدى للبلدين - ألمانيا وتركيا - لا يمكن التغلب عليها إلا بتكثيف الجهود المشتركة .

تم في ١١ أكتوبر ١٩٨٥ افتتاح مركز جديد للدراسات التركية برئاسة الدكتور فاروق سن بالمركز العلمي بمدينة بون - ألمانيا الاتحادية . وتجدر الإشارة بأن تكاليف تأسيس هذا المركز قد تولتها الرابطة العلمية الألمانية .

والهدف الرئيسي للمركز هو إمداد المهتمين في ألمانيا الاتحادية بمعلومات وافية عن المجتمع التركي وثقافته وتاريخه ليساهم من خلال ذلك وعن طريق تكثيف التعاون بين البلدين في تحسين العلاقات الألمانية - التركية .

هذا وقد حُدِثت مشاريع عمل مختلفة يمكن تفصيلها كالآتي :

١ - تكثيف العلاقات العلمية بين ألمانيا وتركيا عن طريق البحث العلمي المشترك .

٢ - تنظيم وتنفيذ مشاريع البحوث المشتركة مثل المحاضرات والمؤتمرات واتصالات الاختصاصيين من البلدين .

تحية الى السيد هانس كالا وزوجته السيدة سيغريد



السيد كالا بصحبة زوجته السيدة سيغريد .

كان ذلك في ربيع ١٩٨١ حين تعرفنا على السيد هانس كالا وزوجته السيدة سيغريد .

كنا في المركز الثقافي الدولي بالمحلمات حيث عقدت ندوة خاصة بالشعر التونسي الجديد . وكان هناك أجنبيان - رجل وامرأة - يتابعان باهتمام شديد من البداية الى النهاية المناقشات والمحاضرات . كما أنهما حضرا الأنشطة الشعرية التي أقيمت خلال تلك المناسبة . وفي البداية اعتقدنا أنهما مجرد سائحان فضوليان . ولكن الأستاذ رشاد الحزاوي مدير المركز أعلمنا في آخر الندوة بصفتها الحقيقية .

وطول السنين الحس الأخرية التي أمضاها السيد «كالا» سفيراً لبلاده - ألمانيا الاتحادية - في تونس ، حرصت زوجته السيدة سيغريد على إقامة عدة جلسات فكرية وأدبية في بيتها حضرتها عدة شخصيات أدبية تونسية من أمثال الكاتب الكبير الأستاذ عمود المسعودي والأستاذ عبد العزيز قاسم والدكتور الحبيب المنحاني والفاس الراحل البشير حزيف وعدد كبير من الشعراء والأدباء الثباني . كما حضرها أيضاً الروائي السوداني الكبير الطيب صالح والشاعر الفلسطيني الراحل ميم بسيسو والشاعر المصري عبد المصطفى حجازي وأيضاً أدونيس وسلمى الخضراء الجيوسي وكال أبو ديب وحلم بركات وغيرهم من الأدباء والمثقفين العرب . وطوال هذه المدة أيضاً نادراً ما تخلّف السيد «كالا» وزوجته السيدة سيغريد عن حضور ندوة ثقافية أو فكرية عقدت في تونس . كما أنهما كانا يزوران باستمرار المدينة التاريخية الشهيرة : القيروان . وكانا شديدي الانبهار بأثارها وبأصالتها . وقد قدم السيد «كالا» منحة خاصة لفرقة المسرحية ، كما أنه وقبل أيام من إحالته الى التقاعد - أغسطس ٨٥ - أمضى قراراً يقضي بأن تعمل مؤسسات ألمانية مختصة بالعمل على صيانة الوثائق الخاصة بمجمع عقبة نافع .

وقد عاش السيد «كالا» وزوجته السيدة سيغريد إحدى عشر سنة في مناطق مختلفة من العالم العربي : بغداد (١٩٥٨ - ١٩٦١) ، الخرطوم (١٩٦٧ - ١٩٨٠) ، وتونس (١٩٨٠ - ١٩٨٥) . كما أمضيا ثمانية سنوات في الهند والباكستان . وهذا ما أكسبها خبرة كبيرة في شؤون العالم العربي وحفز حماسهما للغة والثقافة العربية وأيضاً لدراسة التاريخ العربي - الاسلامي والتقاليد والعادات . وقبل ذلك درس السيد «كالا» وزوجته السيدة «سيغريد» اللغة العربية في جامعة بون .

والسيد «كالا» وزوجته السيدة «سيغريد» هما ابنا مستشرقين كبيرين : السيد بول كالا (١٨٧٥ - ١٩٦٦) الذي كان يدرس في جامعة بون

والسيد «هنريك سامويل نيبيرغ» (١٨٨٩ - ١٩٧٤) الذي كان يدرس في جامعة «أوبسالا» بالسويد .

وقد أعدت السيدة «سيغريد» دراسات باللغتين الألمانية والسويدية حول الأدب العربي نشرت في مختلف المجلات والجرائد السويدية والألمانية . كما ترجمت عدداً من قصائد أدونيس والدرويش والبياتي وغيرهم من الشعراء . إضافة الى ذلك يعود للسيدة «سيغريد» الفضل في إعداد مؤتمر كبير للشعر - السويدي - العربي انعقد بمدينة «لوند» (جنوب السويد) في خريف ٨٤ وحضره عدد من الشعراء والنقاد العرب ، وكان له صدى كبير في الأوساط الثقافية السويدية . وفي الفترة الأخيرة تم تعيينها رئيسة لمعهد الشرق في ستوكهولم .

ويسعد جملة **فكر وفن** أن تحيي السيد «كالا» والسيدة زوجته مجهودها الكبير الذي بذلته من أجل تقوية الروابط الثقافية بين ألمانيا والعالم العربي . كما أنها توجه شكرها الخاص للسيد «كالا» الذي يعد من أكبر المدافعين عن هذه الروابط وعن وجودها واستمرارها .

تحية الى الدكتور هورست شيرمير

في الصحف والمجلات الألمانية . وتصرف ثلاثة أرباع الميزانية المقدرة بـ ٤٠ مليون مارك من أجل النشاطات الثقافية بصفة خاصة . وقد تأسست مجلة **فكر و فن** ضمن هذا التوجه العام المتميز بالانفتاح على الثقافات الأخرى عامة ، وبتعميق الصلات الثقافية بين المانيا الاتحادية والعالم العربي خاصة . وأول من أشرف على هذه المجلة ها : الأستاذ ألبرت ثايله Albert Theile والأستاذة أني ماري شميل Annemarie Schimmel اللذان حرصا لمدة عشرين سنة على الاعتناء بها وتطويرها حتى أنها بفضل تلك الجهود الرائعة التي بذلها ، أصبحت تحظى بقيمة خاصة في الأوساط الثقافية والفنية في جميع أنحاء العالم العربي . وتحولت مع مرور الزمن الى إدارة جيدة للتعريف بمختلف الانتاج الثقافي والفني في ألمانيا ، ومتميزا للكثير من الشعراء والكتاب العرب . وقد توقفت هذه المجلة لفترة قصيرة في بداية الثمانينات لأسباب خاصة ثم عادت للصدور في شهر كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٣ . ويعود الفضل في ذلك الى الدكتور هورست شيرمير نفسه الذي أبدى منذ توليه منصب رئيس INTER NATIONES نشاطاً كبيراً بهدف الحفاظ على علاقات ثقافية جيدة مع بلدان العالم بأسره . ويتكون المجلس المشرف على هيئة ادارة مجلة **فكر و فن** من الأستاذ فيرنر إندة Werner Ende من جامعة فرايبورج ، والدكتور أودو شتاينباخ Dr. Udo Steinbach من المعهد الشرقي بهامبورغ والاستاذ ستفان فيلد Stephan Wild من جامعة بون . وابتداء من أوائل يناير/كانون الثاني ١٩٨٦ ، يخلف الدكتور ديتير برانكي Dr. Dieter Benecke الدكتور هورست شيرمير على رأس INTER NATIONES والذي كان مديراً لقسم التخطيط في Konrad- Adenauer-Stiftung في بون . تحية للدكتور شيرمير من أجل مجهوداته الكبيرة والموقف التي بذلها في مجال تعزيز التعاون بين المانيا الاتحادية ومختلف بلدان العالم .

في أواخر سنة ١٩٨٥ ، يغادر الدكتور هورست شيرمير Dr. Horst Schirmer منصبه كرئيس لمنظمة INTER NATIONES الذي شغله لمدة طويلة ، ليصبح سفير البلاد في «مونتيفيديو» . وقد ولد الدكتور هورست شيرمير سنة ١٩٣٣ في برلين . وبعد أن أنهى دراسته في العلوم السياسية والقانونية في جامعة كولونيا ، شغل عدة مناصب دبلوماسية في سفارات بلاده في كل من مدريد ودبلن وذلك قبل أن يتم تعيينه في القسم الخاص ببلاده في مقر الأمم المتحدة بمجنيف ثم ملحقاً ثقافياً في مدينة مكسيكو . وبعد ذلك تم إلحاقه بالقسم السياسي التابع لوزارة الخارجية الألمانية في بون حيث اهتم أساساً بالمسائل المتعلقة بالتعاون بين البلدان الأوروبية في اطار المجلس الأوروبي .

ومنذ سنة ١٩٧٩ يشغل الدكتور هورست شيرمير منصب رئيس لمنظمة INTERNATIONES . ومعلوم أن هذه المنظمة تأسست سنة ١٩٥٣ . وهي تهدف أساساً الى تعميق العلاقات الثقافية بين المانيا الاتحادية وكافة بلدان العالم . كما أنها تسعى من خلال عملها الى إعطاء صورة واضحة للأجانب حول الثقافة الألمانية وذلك من خلال التعريف بالأدب الألماني وتشجيع حركة الترجمة من الألمانية الى اللغات الأخرى وعرض الأفلام الألمانية وتوزيعها ، وتمكين الأجانب من تعلم اللغة الألمانية . الى جانب ذلك تهتم INTER NATIONES بالضيوف الأجانب وتمكنهم من كل المعلومات التي يستحقونها بخصوص المانيا الاتحادية (الاقتصاد ، السياسة والثقافة الخ) . و INTER NATIONES جهاز مستقل بذاته ، ويشرف على تسييره مجلس إداري يمكن أن ينتسب اليه ، ليس فقط ممثلون عن الحكومة الألمانية وإنما أيضاً شخصيات سياسية تابعة لمختلف الأحزاب المتواجدة ضمن البرلمان الألماني BUNDESTAG والشخصيات السياسية والثقافية المستقلة ، والكتاب والصحافيون الذين يتمتعون بنفوذ كبير سواء في الراديو أو



FIKRUN WA FANN 42

